سلمان العيد

الهموم المحترقة

من أوراق سعدون الحائر

داخلي INTERNAL

إهداء

اقدم هذا القليل هدية لأهالي جزيرة تاروت، تلك الجزيرة التي مازالت تقاوم عوامل التعرية..
وأقول لهم لقد أردت أن اكتب قصتها الحقيقية، ولكن الظروف تحكم.. كل ما في هذه الأوراق من عالم الخيال

– 1 –

وأخيرا وبعد سنوات من الحيرة والتعب والنصب، قرر سعدون الحائر أن ينفض الغبار عن مذكراته، ويعيد قراءة تلك الأوراق والقصاصات التي جمعها طوال أكثر من 40 عاما، كانت مليئة بالتقلبات والحوادث والحوارات والشجارات، والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

سعدون الحائر كان له من إسمه نصيب، لا يدري ماذا يعمل، ولا يعرف ماذا يريد؟ لم يتقن في حياته سوى أن يشترى الأقلام، ويجمع الأوراق من هنا وهناك، ويكتب ما يجول بخاطره من مشاكل وهموم وينثرها على الورق، بصورة لم يكن لها أن ترتقي لمستوى الأدب، فلا النحو موجود، ولا البلاغة قد اخذت موضعا في زوايا فكره غير المستقر، ولا مسميات المبتدأ والخبر،

داخلي INTERNAL

ولا الفعل والفاعل، فضلا عن المستثنى والمضاف، والمضاف إليه، والتمييز والاشتغال، والعطف والبدل.. كل ما يعرفه أن ثمة احساسا يجول بخاطره، ويتحرك في مواقع مختلفة في ذهنه، فما عليه إلا أن يستجيب له ويصبّه على الورق، ويحيله من خلجات ذاتية وأحاسيس وخواطر إلى كلمات، ومن نغزات ضمير ووخزات قلب الى صور قام بـ"رسمها بالكلمات"

على حد قول الشاعر الراحل نزار قباني، الذي قال:"كل الدروب أمامنا مسدودة، وخلاصنا في الرسم بالكلمات".

تلك هواية بها من الغرابة والعجب الشيء الكثير، هواية بدأت مع الحائر منذ أن كان طفلا، أحبّ المدرسة لأنه سمع من والده يقول:"العلم نور والجهل ظلام"، وإنه سوف يموت جوعا إن لم يتعلّم، سوف يضيع في صحراء لا قرار بها، ولا

هواء ولا ماء إذا لم يتعلم وتكون لديه شهادة، فالشهادة العلمية هي مهنة باليد، بالتالي فهي أمان من الفقر، وهي صك سلامة ضد مكائد الدهر، وتقلبات الزمن واستبداده واستغلاله، ومن يحمل العلم سوف يكون راقيا، ومن يفقد سوف يكون مثل "الأولاد الأشقياء"، أو "أولاد الشوارع"، أو على أقل التقادير سوف لن يكون طبيبا ولا معلما ولا صحفيا ولا.. ولا .. ومن هذا المنطلق، وبموجب هذا المنطق ذهب إلى المدرسة وسار وسار، وقرأ وكتب، وتعلّم وفهم، وأخفق ونجح، لكن حيرته في الحياة زادت كلما انفتحت مجالات الحياة أمامه، وكلّما ارتقى إلى رتبة علمية معينة كانت الحيرة تنتابه بين فترة وأخرى، فكلما عرف شيئا تفتح ذهنه نحو أشياء أخرى، وتطلعت نفسه نحو آمال وطموحات إضافية، فيصطدم بالواقع المر، أو الواقع غير الكامل، فما كان له من ملجأ إلا أن يمسك القلم ويكتب ما يشاء وما يريد، وبالطريقة التي يحب، فيبدي ما

داخلي INTERNAL

يدور في ذهنه، وما يتطلع إليه من آمال، وما تواجهه من مشاكل، فتارة يكتب بقلم رصاص، وتارة بقلم حبر جاف، أو بقلم حبر سائل، وكان ذلك بموجب اقتراح من مدرسة اللغة العربية أحمد عواد الذي قال له :"يا حائر اكتب حيرتك وسطّرها على الأوراق"، ذلك حينما فهم المدرس أن طالبه حائر، ومصاب بحالة وسواسية قهرية تنتابه بين فترة وأخرى.. فقال الحائر لأستاذه وكان في السنة الثالثة المتوسطة:

ـ وكيف أكتب هذه الحيرة، وهل الحيرة تكتب؟

فرد الاستاذ عواد:

ـ نعم تكتب، فما في شيء في هذه الحياة لا يكتب، كل شيء يمكن كتابته، حتى الهم والغم، والفرح والسرور، والمرض والألم.

ـ و لكن..

ـ و لكن ماذا يا حائر؟

ـ أنا لا أملك المقدرة على الكتابة.

ـ سوف تملكها يا بني، لو أردت.

ـ كيف؟ وبماذا؟

ـ بكثرة المطالعة، وكثرة التفكير، وكثرة النقاش، وكثرة المعاناة، فالحيرة التي تعيشها هي مقدّمة هامة لأن تصبح كاتبا، بل مبدعا في الكتابة.

ـ استاذي، أنا صغير على هذه الأشياء، وأنا للتو أستطيع ان أقرأ إسمي، وأكتب الدروس الذي آخذها في المدرسة، هل تتصور بأني سوف أكون قادرا على كل هذا؟

ـ المدرسة تمنحك الأساس فقط، اما الباقي فعليك، وتلك هي تجربة الروّاد، في الفكر والأدب، فـ "طه حسين" خريج الأزهر صار عميد الأدب العربي وهو أعمى البصر، والعقاد أتعب العالم بعلمه، وملأ المكتبات بكتبه، وشغل

داخلي INTERNAL

الأدباء والمفكرين بما قدّمه من إبداع وهو ولم يحرز الثانوية، ومثلهما الكثير من الأدباء والخطباء، والقائمة تطول وتحوي.

هنا بقيت كلمات الاستاذ أحمد عواد في عقل الحائر، الذي لم يع كاملا ما قاله الأستاذ لأن ثقافته محدودة وتجربته محدودة، وحيرته للتو تبدأ وتتعمق، فهي تنشأ مع الإنسان منذ طفولته، تكبر مع كبره، وتشب مع شبابه، عدا أنها لا تهرم مع هرمه، فقد يموت صاحبها وهي باقية.. لكنه أخذ يعيد كلمات أستاذه، ويمرر ما قاله على ذاته، ويرى كيف تتم العملية، فعاد مرة أخرى يتحاور مع المدرس فقال له:

ـ أستاذي لقد قلت لي في وقت سابق بأن كل شيء يكتب، حتى الهم والغم، هل يمكن أن تشرح لي هذه العبارة بشكل أوضح، فأنا لم استوعبها بالكامل، ولم أتقنها بالشكل المطلوب.

فرد الأستاذ، وقد بدت عليه علامات الرضا والاهتمام بهذا الشاب اليافع:

ـ يا ولدي الهم يكتب، والغم يرسم، والألم يظهر بصور أخرى، فالشعراء كلهم مألومون متأزمون، والأدباء جلّهم حيارى لا يدرون ماذا يعملون في حياتهم!!

ـ ولكن كيف؟ فهل يعني ذلك أن الأدب والعلم والمعرفة لا تجلب إلا العناء، ولا تأتي إلا من الشقاء؟

ـ ياسعدون تبدو عبقريا ذكيا، تحمل الكثير من التطلعات، وبالفعل أن العلم نور، لأنه يضيء لصاحبه فيرى ما لا يراه الجاهل، فيتألم ويتحسر، ويتطلع إلى الأفضل، فالجاهل سمي جاهلا لأنه لا يرى شيئا ولا يعي شيئا، فلو عرف لما كان جاهلا، ولو شعر ما كان نائما، ولو وعى ما عاد غافلا.

داخلي INTERNAL

ـ أشكرك أستاذي، لكنك لم توضح لي كيف لي ان اكتب همّي، وأرسم غمّي، وأخط ألمي.

ـ أليست الهموم تجري في النفس وتتحرك في زواياها، وتقابلها وقائع يومية كانت سبب هذا الهم، فالفقير مهموم لوجود الفقر، والمريض مهموم لوجود المرض، وكذلك الإنسان الاجتماعي المصلح يتألم حينما يرى الفساد والظلم سائدين في المجتمع، كل هذه الأمور ألا يمكن وصفها بالكلمات؟

ـ نعم يمكن وصفها.

ـ فعليك بوصفها وكتابتها على الأوراق، فما عليك إلا أن تمسك القلم وتخط على الورق كل ما تعانيه، وما يؤرقك وما يزعجك، وما يبهجك أيضا، وبعدها لكل حادث حديث، عليك أن تصف الحال، وإذا كانت لديه اقتراحات للحلول فقدّمها فلست بخاسر شيئا .

ـ شكرا أستاذي

ـ العفو لا شكر على واجب

بعد هذا الموقف انفتحت الصورة واتضحت أمامه معالمها، فقرّر أن يكون كاتبا، لا لهدف أن يكون مثل طه حسين، او مثل العقاد، ولكن يريد أن يتخلص من كوابيسه الذاتية، ومعاناته الشخصية، لذا لم يشأ أن يترك الاستاذ ليبادره بسؤال ينم عن حيرة كبيرة:

ـ استاذي اتسمح لي بسؤال آخير، وأرجو ألا أكون مزعجا؟

ـ لا عليك، لستَ مزعجا، فيا ليت كل الطلاب مثلك يسألون ويستفسرون، فذاك خير لهم في حاضرهم ومستقبلهم، ومن خلال السؤال نصل الى المعرفة.. تفضل

ـ كيف أكون كاتبا، كي أكتب همي وغمي؟

ـ سؤال هام، سهل الإجابة من الناحية النظرية، لكنه صعب التطبيق من الناحية العملية، بمعنى أنه يحتاج إلى شيء من الصبر والتحمّل، وبالنسبة لك يمكن أن تكون كاتبا مادمت تحمل هذه الروح العالية، التي تعلو بها وترتقي، هناك عدة خطوات، الخطوة الأولى هي الإرادة، والثانية هي المعرفة، والثالثة هي الأدوات.

ـ كل واحدة يا استاذ بحاجة الى مجلد كامل، ودرس.

ـ صحيح لكن يمكن أن ننقلها لك باختصار، وتستطيع أن تطبقها، وتسير بموجبها، والتوفيق من عند الله، وبعد ذلك تبدع فيها، وتتميز، وتصبح لديك صيغة خاصة تنطلق من خلالها إلى رحاب هذا العالم، وتقدم خدمة للإنسانية، فليس أفضل من العلم والأدب لتخليد سيرة الإنسان، ورفع مستواه وسمعته في المجتمع.. أما

الإرادة ـ يابني ـ فهي الصفة التي تميز العظماء عن غيرهم، الفقهاء عن الجهلاء، المبدعين عن العاديين، فمن يملك الإرادة يتمكن أن يجند كل طاقاته الذاتية لخدمة أهدافه، بينما فاقد الإرادة هو الذي يسقط ويتهاوى أمام أول عقبة تواجهه في الطريق، فالطريق ليس معبّدا، ولا مفروشا بالورود، ولا معطرا بالرياحين، إنما هي أشواك تتالى وحفر ومنعطفات تسهل لمن يتطلع لتسهليها وتصعب لمن لا يستطيع مقاومتها والوقوف أمامها، ولا أجدك يا بني إلا شخصا قادرا على ذلك.

ـ أرى الكلام يزداد صعوبة.

ـ الصعوبة هي سمة الحياة، فقد قالوا:"يغوص البحر من طلب اللئالي، ومن طلب العلا سهر الليالي"، فعليك بعقد العزم، والتوكل على الله.

ـ ماذا عن الصفة الثانية؟

ـ الصفة الثانية هي المعرفة، فمن يسعى لأن يعطي الناس شيئا، فلا بد أن يكون عارفا بماذا يريد أن يعطي، وفاقد الشيء لا يعطيه، أنت الآن طالب في المرحلة المتوسطة، بعد سنوات سوف تدخل المرحلة الثانوية، ثم تلتحق بالجامعة، فعليك أن تجتهد في دروسك، وتواصل تحصيلك العلمي، وفوق ذلك عليك بالتوجه إلى مصادر المعرفة الأخرى، وهي الكتاب، والكتاب لا يعني القراءة فقط، وإنما نعني بذلك القراءة التي تنعكس على صاحبها بأن تحدث في صاحبها شيئا من التفكير والإحساس وترتقي بالذهن البشري من واقع إلى آخر، ولا نعني المطالعة والقراءة البغبغائية كما يفعلها بعض الطلبة، حيث تنتهي علاقتهم بالكتب بعد ظهور النتائج، إذا كانوا ناجحين، إننا نلحظ أن من يقرأ يشعر بمتعة لا تعادلها متعة أخرى، فلذة العلم والإطلاع رائعة

داخلي INTERNAL

جدا، ومن يتطلع إلى هذه المتعة يحقق الكثير من الأشياء لنفسه ولأمته، ولحاضره ومستقبله.

ـ وهل هناك مصادر للمعرفة غير الكتاب؟

ـ نعم، الحياة هي أهم مصدر من مصادر المعرفة، فمن يطلّع على تفاصيلها ويفكّر سوف يجد الكثير من العلوم، لذلك لم يكن غريبا ولا مستغربا أن يكون "تفكّر ساعة خير من عبادة سنة"، فالعبادة تعطي روحا داخلية محدودة، وتحقق الخضوع للمولى من جانب واحد، بينما التفكر والتدبر في آيات الله تحقق الخضوع من كافة النواحي، فما أجمل أن يتحقق الرقي في الفكر مع الرقي في النفس و الارتفاع في الذوق العام، وهذا لا يتحقق إلا من العلم والتفكير.. فحينما تقرأ كتابا أو قصة أو تسمع خبرا فإن فائدة كل ذلك تتمثل فيما أثار لديك من فكرة وما حرّك بداخلك من مشاعر، وما أوجد من معلومات جديدة، تتفاعل مع المعلومات السابقة فتنتج شيئا

جديدا تستفيد منه الإنسانية، وأولها صاحب الفكرة نفسها.

هنا توقف سعدون الحائر، وكأنه اكتفى بما قاله أستاذه، وطلب الإذن بالراحة، مبديا استعدادا للقاء آخر، ليتم الحديث عن الأدوات الخاصة بالكتابة، فهو يريد أن يصبح كاتبا، كي ينفث همومه ويقتل (أو يكتب) حيرته التي بدأت معه يوم كان صغيرا، فجعلت منه مزاجيا متقلّبا، تارة يميل إلى الحزن دون أن يعلم، وتارة أخرى يفرط في الضحك والفرح بصورة غير طبيعية وغير متصورة، وتكون غير مقبولة في بعض الأحيان، حتى عرف بين الناس بجملة من الألقاب كالهائم والتائه، والناي الحزين، إضافة إلى كنيته التي عرف بها وهي "الحائر".

افترق عن الأستاذ لكن كلماته بقيت عالقة في ذهنه، واقفة على جبل أشم في داخل قلبه، متمكنة

من أحاسيسه، جعلته يتوق إلى لقاء آخر، لعله يكمل له حلقات المسلسل الذي ابتدأه، ثم بعدها ينتقل مع الاستاذ الى حديث آخر عن سر الحيرة، ورغم أن الحديث كان مباشرا صريحا عدا أن القاعدة الفكرية لدى الحائر مليئة بالأسئلة معبأة بكل مسميات التردد والشك، أضافت لديه حيرة إضافية، فلم يتصور أن الهم يكتب، والغم يرسم، والحيرة تخط، فراحت الأسئلة تتحرك مثل موج البحر، وغدا مكبلا بذاته، وكأنه عجوز عركته التجربة، وعرف كل تفاصيل الحياة، وكأنما جبل أبي قبيس، أو جبال الهملايا قد نزلت على رأسه قائلا:"ويلاه من الهم، الذي لا أعرف سببه، ولا أعرف له تفسيرا، فكيف سوف أكتبه، وأنا لا أعرف الكتابة من الأصل، ولا أعرف لماذا خلقت مهموما، ولماذا أنا المهموم الوحيد من بين أبناء المجتمع، ألا ترى فلانا وفلانا يرفلون بالهناء، فلم أجد أحدا منهم مكتئبا فهم ضاحكون دائما، مبتسمون دائما، وإذا جلست معهم شعرت

بذلك، فما يكون مني إلا مجاراتهم في ضحكهم، أضحك وأمرح حتى لا أموت، وحتى لا يملّ أصدقائي مني، رغم أنهم كلهم ـ أو بعضهم ـ يعرفون ما أنا عليه من المزاجية والتقلب.. لذلك لا تجد أحدا منهم يزعم أني صديقه المقرّب، أو زميله الوحيد، فكلهم أصدقائي لم أخطأ على أحد منهم، ولم أقم بأي شيء يزعجهم، لكني لم أستطع أن افهم لماذا أنا ولماذا هم؟ ألسنا كلنا أولاد تسعة كما يقولون، وكلنا ولدنا وعشنا وتربينا في حارة واحدة، نلعب الألعاب نفسها، نأكل الخبز الأبيض مع الحليب الساخن في الصباح، ونأكل الأرز مع اللحم أو السمك أو الدجاج في الظهر، ونكرر وجبة الفطور أو وجبة الغذاء في المساء، وكلنا نلبس الملابس نفسها، فلا يوجد بيننا من عينه خضراء، إلا واحدا اتفق الجميع على تسميته بـ "الوردة"، والبعض من شدة إعجابه به وصفه بـ "الملون"، فهو محبوب الجميع، فهل تعاستي

بسبب عدم وسامتي، لكني في الوقت نفسه ـ وللحق ـ لا أجد أحدا يكرهني أو يحتقرني أو يستصغرني، فالجميع محترمون معي، لكن شعورا لم أعرف مصدره يجعلني مغايرا لهم ومختلفا عنهم".

تساؤلات ذاتية نقلها الحائر إلى الأستاذ في الموعد الذي حدّده معه، فلم يكن الأستاذ قادرا على أن يضع حلولا جذرية لها، عدا أنه كرّر جملته المشهورة:"أكتب كل همومك على الأوراق فلن تعاني منها بعد ذلك، فهي أشبه بـ "كبسة أرز" أعدتها الوالدة فتأخذ منها ما تأخذ، وتلقي الفائض في مكانه المحدد، فتتخلص منه، فلك أن تتصور لو بقى كل ما تأكله في بدنك فلا شك أنك سوف تمرض، وربما تموت والعياذ بالله".. هنا صمت الحائر وكأنه قبل الحل الجذري، بعدها تذكر أن هناك نقطة أخيرة أراد ان يسأل عنها وهي الأدوات اللازمة للكتابة، فقال له الأستاذ:

ـ الأدوات عديدة، ومعدودة أيضا.

ـ كيف ذلك استاذي

ـ وسائل التعبير عديدة، وربما يكون هناك اتفاق عليها، ابرزها "الخاطرة، والمقالة والقصيدة، والقصة"، وكل فن تتفرع منه فنون، فالمقالة تأتي قصيرة فتصبح عمودا في صحيفة، وقد تأتي طويلة وتصبح فصلا في بحث، والقصيدة قد تأتي ملحمة من ألف بيت، وقد تكون كتابا دراسيا مثل ألفية ابن مالك في النحو، والتي شرحها نحوي آخر يدعى ابن عقيل وأنجز هذا الشرح كتابا من جزأين يدرسه الطلاب في الجامعات، والحال نفسه مع القصة التي قد تكون إقصوصة من بضع صفحات، أو رواية من ألف صفحة، وقد تتحول إلى مسرحية أو فيلم سينمائي، وكل فن من هذه الفنون له مناهجه وأصوله وتقنياته، فما عليك يا بني إلا أن تبدأ، ومن جد وجد، ومن سار

على الدرب وصل، عليك بتجاوز عقدة البداية فقط.

في هذه اللحظة شعر سعدون بشيء من الدوار، وعادت أمواج الحيرة تتلاطم في ذهنه المضطرب أصلا، وعلى نفسه التائهة قائلا:

ـ في أي هذه الفنون تجدني

ـ عليك بالخاطرة والمقالة، وإذا لم تفهم كيف تكتب يمكن الرجوع لي، وإذا كنت لا تريد سؤالي لأي سبب كان، فاذهب الى المكتبة واقتن لك كتابا حول الكتابة وآلياتها، حينها سوف تستفيد، ولكن في البداية اكتب ما يحلو لك، وضعه في أوراق في أي مكان واحرص على ألا تضيع، وإذا لم تجد فكرة تكتبها فاكتب يومياتك، اكتب أنك ذهبت الى المدرسة وتشاجرت مع الأستاذ، وقمت بشتم أحد أصدقائك، وأقمت علاقة غير شرعية مع فلانة أو فلان، وإذا لم تجد شيئا تكتبه فاكتب قصة حياتك، منذ أن كنت طفلا

وتذكر أيّامك المرحة والتعيسة ولا تتردد، حينها سوف تتمكن من الكتابة، وسوف يلوى لديك عنان القلم، وسوف تنثال المفردات أمامك، الأهم في كل ذلك هو أن تزاوج بين القراءة والكتابة، فلا تكتب دون أن تقرأ فتكرر نفسك، ولا تقرأ بدون أن تكتب فتضج من جبال المعلومات التي تتحول بقدرة قادر إلى هموم داخلية، هل فهمت الدرس.

ـ نعم لقد فهمت وعلمت، والله إنه لأثمن و أهم درس تعلمته في هذه المدرسة البائسة.

ـ البائسة مرة واحدة، وكيف عرفت كلمة البائسة، ولماذا هي بائسة؟

ـ منك يا استاذ

ـ مني؟!

ـ نعم في درس الإملاء حينما شرحت لنا قصة الهمزة فقلت إن مواضع الهمزة تأتي على الكرسي إذا كانت مجرورة او ما قبلها مجرور فقلت عنها :" الهمزة البائسة والخائسة"!!

ـ لا شك أنك تلميذ "شاطر" وتستوعب الدرس بشكل جيد، أنت مشروع كاتب، لكنك أزعجتني كثيرا، فعليك بالتوجيهات واذهب فقد رنّ الجرس، وابتدأت الحصة لا يفصلونك، وتصبح بعد ذلك إنسانا "بائسا" بكل معنى الكلمة، فأولى مقومات الإبداع هو الالتزام بالنظام، ومن ضمن معالم ومعاني هذا الالتزام هو حضور الحصة الدراسية المقرّرة في وقتها المحدد، وعدم المشاغبة في الصف، والتركيز على أخذ المعلومات، فالمعلومة تملكها اليوم، وغدا أنت مسؤول عنها، وعن بثّها وتعريف الناس بها، فإذا لم تستوعبها فكيف سوف تنشرها.

– 2 –

ابتدأ سعدون الحائر يكتب يومياته، حسب اتفاقه مع أستاذه، فقرّر الاعتماد على نفسه دون سؤال أحد، بمن فيهم الأستاذ أحمد عواد، وغرضه في ذلك ليس أن يصبح كاتبا مرموقا، والكتابة المرموقة لم يتصور نفسه ـ وهو صعلوك ـ أن يصل إليها، ولكنه أراد أن ينفض الغبار عن سر لا أحد يستطيع أن يعطي له تفسيرا، وهو أنه محتار دائما، مهموم دائما، حزين كئيب، يخفي ألما داخليا، لكنه ـ مع ذلك ـ يصانع به من يصانع، انطلاقا من بيت شعر لزهير بن ابي سلمى، يدرسه طلاب الثالث المتوسط والقائل:"فمن لم يصانع في أمور كثيرة.. يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم". وحينما سأل عن كلمة "يصانع" قال له البعض:"يجاري، ويجامل، حتى لا يكرهه الناس". فطرأت عليه فكرة تخصيص دفتر من دفاتره الدراسية، كي يكتب فيه

خواطره، وينثر فيها همومه، فكانت أولى مشكلاته أن المدرسة طلبت منه ستة دفاتر محسوبة، وقد قدّم خمسة دفاتر، ففتح على نفسه باب مشكلة مع المدرسة التي الزمته بتوفير الدفتر السادس، ولأنه لم يستطع أن يطلب دفترا من والده الذي لم يستطع هو الآخر أن يضيف دفترا آخر، فلم تكن له من حيلة إلا أن ترك الدفتر الجديد للمدرسة، وقام بصناعة دفتر له يتألف من الأوراق المتبقية من دفاتر العام الماضي التي لم تتلف بعد، فاستطاع أن يجمع دفترا ضخما كونه يتألف من نتاج أكثر من دفتر، صحيح أن ألوانها مختلفة، بعضها من دفاتر "وجه وجه"، وبعضها أوراق ذات خطوط طويلة، وبعضها ذات مربعات خصصت لدرس الهندسة، هذا فضلا عن أنه وجد في أحد براميل الزبالة بعض دفاتر زملائه قد تم رميها، فأخذ الدفاتر التي لم تستكمل فنزع الأوراق البيضاء وترك الأخرى إلى النفايات، فصارت لديه

مجموعة دفاتر ليقوم بالكتابة عليها، فلم يعد بحاجة لأن يأخذ دفترا من دفاتر المدرسة، فقد تمكّن من حل مشكلة الورق.

ثم جاءت الخطوة الثانية وهي توفير القلم المخصص للكتابة، لا بد أن يكون مختلفا عن قلم أو أقلام المدرسة، فهو لا يحتمل غضب والده بأن يطلب كل أسبوع قلما، وهو من الأصل لا يريد إغضاب أحد، فما بالك إذا كان هذا الأحد والده، فاخترع فكرة لا تخطر على بال شاب مراهق مثله، وهي توفير جزء من مصروفه اليومي كي يشتري قلما سائلا مع محبرة حتى لا يقوم بتغييره كل مرة، فماذا يفعل فالمصروف أربعة قروش أي أقل من ربع ريال، والقلم يكلف ريالا كاملا، والمحبرة بثلاثة ريالات، لكنه مع ذلك تمكن من توفير قيمة القلم السائل من طراز "باركر" والمحبرة من الحبر الأزرق المائل للأسود من طراز "باركر" أيضا، فالقلم والمحبرة

والأوراق قد جهزت فما عليه سوى البدء بخطة الأستاذ احمد عوّاد، فصار لديه برنامج كتابي يومي، فقد امتهن الكتابة، التي صارت جزءا منه فما أن تمر عليه صورة أو منظر، أو شخص إلا وكتب عنه، وإذا ما تأزم الموقف مع أحدهم قد يجد له حلا، بين أوراقه المتناثرة، إذا لم يتوفر أي حل على صعيد الواقع، وإذا ما تجادل مع أحد، فإن انتصر في جداله كان بها، وإن كان مهزوما في الجدال يقوم بالرد على من هزمه في الورق، وعلى كلا الحالين فهو يكتب كل تفاصيل معاركه مع ذاته ومع الآخر، وأي درس يريد مذاكرته، وأي قصيدة يريد حفظها يقوم بكتابتها أولا، فيتذكرها سماعا وتكرارا ويكتبها فترسخ في ذاكرته، وكانت الكتابة أفضل الوسائل لديه لحفظ المعلومات المطلوب حفظها، وكانت حصة التعبير عشقه الأسبوعي الأهم، لذلك تفوق في هذه المادة دون غيرها، كونها انسجمت مع توجهاته في كتابة الخواطر، ومن هذه المادة انتقل

داخلي INTERNAL

إلى المواد الأخرى، فاستطاع أن يتقنها اتوماتيكيا، كونه لم يدع درسا إلا وكتبه، ومن الكتابة كان يحدث الاستيعاب، وصادف أن بعض المدرسين يشجّعون على هذا التوجه، فكان الأستاذ نشأت المصري مدرس الجغرافيا بعد كل درس يعطي الطلاب سؤالا عن الدرس يطلب منهم الإجابة عليه كتابة، حيث يتم نقله في الغالب من الكتاب، وهو يعلم ذلك، لكنها خطة ذكية تلزم الطالب أن يقرأ المادة العلمية ثم يقوم بكتابتها، لكن هذا المدرس اقترح أيضا على الطلاب في الإجابة على الاسئلة بأن يقرؤوا المادة ثم الإجابة على السؤال غيبيا، وإذا لم يتمكن الواحد من ذلك فعليه العودة الى الكتاب لاستكمال المعلومة، وغرضه في ذلك تحقيق الاستيعاب، وترسيخ المعلومات في الأذهان، وقبلها توجيه الطلبة إلى المذاكرة، وكانت هذه الطريقة قد استهوت سعدون الحائر فقام بتطبيقها وغرضه في ذلك المزيد من الكتابة،

وكأن شيئا بين يديه يحركه لأن يكتب، فإذا لم يكتب فإنه يحلم بالكتابة، ويحدث أحيانا أن يخط في الهواء، فيتخيل نفسه حاملا قلمه وهناك ورقة أمامه يكتب عليها، وينسى نفسه بأنه يكتب في الهواء، لقد تعوّد كتابة ما يجول في ذهنه، وما يدرسه في المدرسة، فمن مادة التعبير إلى الجغرافيا إلى الدين إلى العلوم، فهو ـ بذلك ـ لا تنقصه المعلومة، فهو يكتب دروسه والمعلومات التي حصل عليها من أفواه المعلّمين، أو من بطون الكتب التي يدرسها، ويحدث أن معلومة يحصل عليها وهي غير موجودة في الكتاب، أو أن فكرة كانت في الكتاب لم يتطرق لها المدرس، ولم يلفت النظر لها.

ذات مرة انتابه شعور بالعجز وصار أسير بعض الخواطر، والهجمات النفسية المزعجة، التي تنتابه بين فترة وأخرى، وليس له وسيلة دفاع تجاهها، فلم يجد شيئا يكتبه، فالدروس باتت مملة لديه، ومادة التعبير لم يحن حينها، ولم يتم تكليفه

بأي واجب يذكر..هنا تذكر أيّامه في المرحلة الابتدائية كيف كانوا يعطونه قطعا طويلة من مادة المطالعة ليكتبها نسخا مع كافة علامات الترقيم (الفاصلة، النقطة، علامة التعجب، علامة الاستفهام)، وكذلك علامات الإعراب (الضمة، الفتحة، الكسرة) فضلا عن المد والشد والهمزات كلّها، فقرّر أن يقوم بعملية من هذا القبيل تخفف آلامه الذاتية التي لا حل لها في هذا الوقت غير القلم والورقة، فلم يكن منه إلا ان أخذ القرآن الكريم، فهو الكتاب الوحيد المتيسر له قراءته، فلا كتب ولا مكتبة لديه، فقام بكتابة سورة القارعة، ولم يكن يعلم لماذا اختار القارعة، إنما فتح القرآن الكريم فجاءت عيناه على هذه السورة المباركة فكتبها بالكامل، ثم القى عينه على كتاب آخر كان بجوار القرآن الكريم، وكان يظن أنه نسخة أخرى من الكتاب المقدس، لكن بطبعة تختلف، ففتحه فإذا به كتاب "نهج البلاغة" الذي هو كتاب يضم خطب

داخلي INTERNAL

وحكم وكلمات الامام علي بن ابي طالب (ع) جمعها أحد أحفاده وهو الشريف الرضي، فراح يقرأ ويقرأ، ويكتب من الكتابين المقدسين، فرأى جملة من مفاتيح الأمل قد انفتحت أمامه فقد تخلص من بعض حيرته ومن ألمه الذي حل به، فاقتنع أن القراءة دواء، قراءة القرآن شفاء، والكتابة بلسم يجمع كل الأدوية، فهي باب يفتح أمام عينيه الكثير من مغاليق الجهل، وتمنحه حلولا للكثير من المشكلات في الحياة.

هنا تذكر مقولة أستاذه احمد عواد بأن كل الكتّاب مأزومون متألمون، وإن توجههم نحو الكتابة، لا تختلف عن نزوة مدمن الخمر فلا حل له إذا حلت به تلك الرغبة إلا الهروب والهوس والتقلب أو كرع جرعة من المسكر تمنحه شيئا من الهدوء المؤقت، والكتابة قريبة الشبه بحالة الإدمان على المسكرات عدا أن ما ينتج عنها هو علم ومعرفة وذوق، غير أن ما ينتج عن السكر تيه وغيثان وانحطاط.. وإنفاذا لوصية الاستاذ قرر ان يحتفظ

بكل ورقة خط عليها أوهامه أو أحلامه، تغريباته وتهويماته، أكاذيبه وحقائقه، همومه وغمومه، وقد وضع له صندوقا يحمل فيه تلك الأوراق المتناثرة، ذات الأحجام المختلفة، إذ في كثير من الأحيان لا يجد ورقا للكتابة فكان يلجأ لأي ورقة يجدها في الطريق حتى لو كانت من صناديق الورق القوية المخصصة لعلب الحليب والفاصوليا، بل أنه كتب خواطره على مناديل ورقية رآها في الشارع، بعد أن يتأكد بالكامل من خلوّها من مخلفات ومنتجات البشر، لكنه بذلك أحالها الى منتج مفيد.

كتب في كل شيء حتى في اللاشيء، كان يقرأ كل ما يقع في يده، ولأنه فقير مدقع لا يملك القدرة على شراء الجريدة، كان مكان النفايات خير مكتبة تدعمه، فما بين فترة وأخرى يمر على المكب (المزبلة) ويرى جريدة كاملة، أو ورقة من جريدة كان بعض الناس قد جعلوها سفرة لأكلهم وهو بدوره يأخذها ويقرأ ما تيسر منها، ويقوم بنقل

بعض الحكايات من بعضها، نقلا حرفيا، أو نقلا بالمعنى، المهم لديه أن العودة ليلا الى المنزل لا بد له من كتابة نص معين حتى لو كان قصيرا وليس له أي فائدة، او حتى بلا معنى، لهذا وصفه صديقه (سعد) بأنه شخص مريض بداء لا دواء له يتمثل هذا الداء في "دودة" غزته في يده اليمنى وليس في مكان آخر كما تصيب الآخرين، فما كان من سعدون إلا ان طلب من صديقه الايضاح قائلا:

ـ ماذا تقصد بالدودة؟

ـ اقصد المحنة

ـ المحنة ؟(يتساءل الحائر بغباء متعمد).

- المحنة أو الدودة تأتي لبعض الناس تجعلهم يميلون أو يرغبون أن يأتيهم الآخرون بفعل قوم لوط، أي أنهم يدعون الناس لأنفسهم.

ـ استغفر الله، يعني انا صديقك، ورفيق عمرك، وزميل طفولتك، وبيننا "عيش وملح"، مع تصفني بأنني "لوطي"، أو مصاب بمرض اللوطية.

ـــ لا، ولكن حالتك تشبه من يصاب بداء لا حل له إلا ماء الرجال، أنت مثل هؤلاء الناس، ما تبرد "المحنة" عندك إلا إذا قمت بالكتابة، وهذا مرض يشبه الى حد كبير داء المحنة، أجلك الله، حيث لا تبرد لدى "الممحون" إلا تعرض لذلك الفعل.

هنا غضب سعدون الحائر، وأزعجه هذا التشبيه المعيب، وكاد أن يفتك بصاحبه، ولما عرف سعد منه الغضب قام بعملية تلطيف للأجواء وقال:

ـ يا صاحبي لا تغضب، لكن الدودة أشكال، البعض تأتيه في دبره، والبعض تأتيه في ظهره، والبعض تأتيه في يده، وإذا كان لم يعجبك التشبيه فالكتابة لديك مثل "الخولنج" الذي لا حل له إلا أن تنام على وجهك ويأتي شخص آخر ليقوم بالضغط

على موضع الألم ليخرج الهواء من فمك، وتنتهي معاناتك، ولكن لا تضمن بأن الخولنج ما يعود مرّة أخرى.

ـ لا شك إن تشبيهاتك جميلة تستحق أن تكتب، وخيالك خصب، يمكن أن تبدع في الكتابة.

ـ حتى هذا الكلام الفاشل تريد كتابته؟ إذن أزيدك من الشعر هذا البيت، انت مثل واحد غص بعظم لا حل له إلا أن يخرج هذا العظم، أو ينزل داخل بطنه، فإن خرج راح واستراح، وإن نزل استراح ولكن الله يستر من الذي سوف يحصل داخل بطنه، وإن بقي ظلت الآلام تراوحه، ويمكن أن يموت فلا حل له إلا ان يخرجه أفضل.

ـ اما عندك تشبيهات غير هذه التشبيهات التي تبعث على الغثيان؟

ـ نعم عندي، أنت اشبه بمن يحبس ماء ظهره، ما أن تسنح له الفرصة حتى يقذف كل شيء، ولا تتم هذه العملية إلا بعد جهد جهيد، وتعب لا يتصور،

داخلي INTERNAL

ويمكن أن تكون وراءه نتائج كارثية، ولكنه يميل إلى هذا الفعل، لكي يتخلص مما في صلبه، ويمكن أن ينتج عنه ولد أو بنت.

ـ اسكت عليك اللعنة!!

ـ هذا هو واقعك المرير، فكل شيء تريد كتابته، وكأن كل شيء يكتب،

ـ يا أخي اسكت، لقد جلبت لي المأساة والألم والحزن بهذه التشبيهات السوقية.

وبهذا الحسم أوقف الجدل مع صديقه الساخر، لكنه ـ مع ذلك ـ لم يترك هذا الموقف، بل راح وكتبه ضمن يومياته، بل عد هذا الموقف والتشبيهات نوعا من المهارة، إذ أنه في موقف واحد لم يستغرق بضع دقائق استمع لمجموعة تشبيهات، رغم أنها سوقية إلا أن لها من الواقع الشيء الكثير، هنا تذكر مقولة الأستاذ أحمد عواد حينما قال بأن الحياة أعظم مدرسة للأفكار، لهذا وجد

صديقه وبطريقة شعبية انتقل من تشبيه إلى آخر، ومن وصف دقيق إلى آخر، وإن اعتبرها الحائر على مستوى دان من الوساخة، لكنه مع ذلك سجّلها ضمن يومياته، ورصد أحداثها، وكتب مقالة موسعة حول فن التشبيه، ونقل الصور غير الواقعية الى واقع معيش، ولم يفته أن يتوقف عند درسة البلاغة ومعرفة مهارة التشبيه، التي هي قدرة خاصة، ليست بمقدور كل أحد أن يتقنها، وتصوير جميلة إذا جاءت تلقائية مباشرة.

لقد صار اشبه بالرادار يرصد كل شيء في هذه الحياة، فلا حالة شجار تحصل في السوق إلا وقام بكتابتها بالتاريخ واليوم، فما أن يرجع إلى المنزل حتى يقوم بالكتابة المفصلة للحدث، فتارة لا تستغرق العملية لديه سوى بضع دقائق، وتارة يجلس لبضع ساعات يعمل تفكيره في الحدث ليصل إلى الصورة الحقيقية، فهو أشبه بالأصفهاني صاحب كتاب الأغاني الذي يتحدث عن الألحان، فينتقل ويعرض تاريخ صدور هذا

اللحن، ومن عاصره من الأدباء والشعراء والخلفاء، ليقوم بعرض سيرهم الذاتية وإنجازاتهم ومشكلاتهم وما حاطت بهم من حوادث ومجريات.

وبعد سنوات من الجمع والكتابة العشوائية، تكونت لديه حصيلة، فهو لم يعد ذلك الطفل أو الشاب الذي يجلس مع استاذه يسأله، فهو قد طوى المراحل الدراسية، وانتقل الى حياة وظيفية أفضل، وصارت لديه عائلة، لكنه لم يتخل عن هوس الكتابة، ولا هواية الإنشاء والتعبير، فهي هواية بها من المتعة والجمال إذ يشعر وهو يكتب وكأنه في حديقة غناء بها من الورود والعطور، زاد على ذلك كثافة مطالعاته في الأدب والشعر والروايات فضلا عن الكتب العلمية والفكرية الأخرى.

وفي كل مرة لا ينسى أستاذه أحمد عواد الذي طالما كرّر عليه جملة غابت عنه مع مرور الزمن وهي الدقة والالتفات الى التفاصيل والقيام

برصدها ففي ذلك خير معين للكتابة والوصف، لذلك كان في كثير من الأحيان يجده أصدقاؤه يلتفت إلى أشياء لم يلتفت لها أحد، ويرصد تفاصيلها غيره، فقد عدّ المطاب الصناعية من دارين الى مبنى البريد في شمال تاروت، بحوالي 20 مطبا صناعيا في وقت ما، زادت ونقصت بفعل عوامل التطوير والتنمية في هذا الشارع العتيد، لكن الكاتب الذي يريد أن ينتج عملا أدبيا يفيد الناس عليه أن يكون دقيقا ذا نظرة شمولية.

الحائر وبعد سنوات من الجمع قرّر أن يعيد قراءة تلك الأوراق، فربما حفلت بأشياء تفيد البشرية، وتنفع الإنسانية، وربما حققت له بعض الفائدة خاصة وأنه وفي حال ضاقت به السبل كان يقوم بكتابة ذكريات طفولته، وأيامه الأولى، أيام الشقاوة والسعادة، وفي حال ضاقت أكثر كان يقوم بشتم نفسه، أو شتم أي شخص يطرأ على خاطره، وفي بعض الأحيان يكتب باكيا، وأحيانا يكتب ضاحكا، وأحيانا يكتب ولا يدري ماذا يكتب، فقد

اجتمعت لديه أوراق كثيرة عبأت ذلك الصندوق الذي سفت عليه الأغبرة، وأكلت بعضها القوارض، وسرحت بين أجواء تلك الأوارق كل ما تيسر من مخلوقات الله الضارة كالصراصير والنمل والوزغ والجرذان الصغيرة.

لكنه في لحظة من الحسم قرّر أن ينفض ذلك الكرتون، ويهزّه ويظهر ما حواه من وريقات، كتبت بألوان حمراء وزرقاء وسوداء، بل أنه كتب بحبر يتكون من القهوة السوداء، كانت مكان الحبر في مخزن القلم الباركر، وأكثر من مرّة كان يكتب بقلم رصاص سرقه من أخيه الصغير، فلم يكن يمنعه القلم ولا نوعه ولا لونه، المهم أن يكتب، لذلك جاءت الأوراق بأحجام مختلفة صغيرة وطويلة، مربعة ومستطيلة، أوراق الدفاتر المدرسية، أوراق المحارم الورقية، أوراق الكرتون المضلع، بل حتى بعض قطع الخشب، كل ذلك لأن الحاسب لم يصله ولم يتعامل معه في

بدايات حياته، ومع أنه تعاطى مع هذا الجهاز الغريب عليه، لكنه لم يشأ أن يحيل الورق إلى التقاعد لمجرد أن دخل عالم الحاسب الآلي، فلم يشأ أن ينهي سنوات من المتعة في معانقة القلم مع الأوراق الزاهية، وكان دائما يكرر بأن القلم السلس هو الذي يشعرك بالسعادة حينما يتعانق مع الورق، فتنتج عنه المعلومة سليمة، سعيدة .

داخلي INTERNAL

- 3 -

حينما قرر ان يرجع الى تراثه وما كتبه يعرف جيدا أن أوراقه غير مرتبة، لأن تواريخه غير مرتبة، وإنما راح يفتش بين الأوراق ويرفع مجموعة تلو أخرى، الجامع بين المجموعة هو اللون، أو الحجم، فكانت أولى أوراقه التي توقف عندها كانت مقالة تحمل عنوان "شهيد الكهرباء"، وهي حكاية وفاة شاب من جزيرة تاروت يدعى أحمد الحلو تقول تلك المقالة:

لقد كان يوما مهيبا شهدته جزيرة تاروت، فقد خرج الناس عن بكرة أبيهم، البعض أصيب بالدهشة، والبعض من شدة الذهول اختنق بصوته، وتوقفت الكلمات داخل حنجرته، لقد جئت ضمن من جاء ليلاحظ حالة الوفاة، على طريق بلدة الربيعية عند متفرق الطريق مع بلدة سنابس، فكانت أول حادث وفاة أشهده في حياتي، فقد صعد

الحلو إلى عامود الكهرباء الخشبي الطويل، ليصلح ما بذلك العمود من تلف، لكنه لم ينزل، بل بقى مكانه، ويبست عظامه، وتوقف قلبه، ولم يتحرك دمه، وفارقت روحه الدنيا، فكان فجيعة أبكت الجميع في جزيرة تاروت، فالميت شاب في مقتبل العمر، للتو قد تزوج، وفي يوم إجازته الاسبوعية، فقد انتقلت الكهرباء إلى أجزاء بدنه فأحالته جثة هامدة، تفحم في مكانه، وراحت روحه إلى بارئها.

لقد دار هرج ومرج حول سبب الوفاة، لكنه من الثابت أن جهد الكهرباء قد سحب دمه، فتوقف عن الجريان، فكانت روحه فيها، إنه مشهد مهيب، الكل واقف ينظر إلى الأعلى، والرجل ملتصق بالخشبة لا حراك فيه، والناس في حيرة ما بعدها حيرة، إلى أن تم إنزاله برافعة جلبت من القطيف، فلا أحد تجرأ لأن يصعد وينزل جثمان هذا الشاب المأسوف على شبابه.

وخلال عملية التشييع قال لي أحدهم أن الحلو رجل كهربائي من طراز نادر، وهو من الاشخاص القلائل القادرين على صعود العمود الخشبي بواسطة قطعة جلد، اشبه بـ "الكر" الذي يستخدمه الفلاحون في صعود النخيل الطويلة، ولكنه يستخدم حذاء خاصة بها مسامير كبيرة، ما أن يلامس هذا الحذاء العمود الخشبي حتى يلتصق بالعمود، إذ تتغلغل المسامير داخل العمود، فيصعد خطوة خطوة، حتى يصل إلى نهاية العمود، حينها يقوم بحماية نفسه بأن يشبك الكر الجلدي فيمسكه حتى لا يسقط، بعدها يقوم بدوره ككهربائي، يشبك أو يفصل الأسلاك ذات الضغط العالي، وما أن ينتهي ينزل إلى حيث بدأ، وفي هذه العملية يكون التيار الكهربائي مفصولا من المصدر، فلا يتم إيصاله حتى يتم التأكد من أن الكهربائي في مكان آمن، حفاظا على سلامته.

لكن ماذا حدث لهذا الكهربائي سيء الحظ؟

لقد حدث ما لم يتوقع، فالكهربائي الماهر طلب من أصحاب المصلحة ايصال التيار، لعلمه بموقع المولّد، فلن يتم ايصال التيار وهو فوق العمود، لكن الذي استبعده حصل، فقد تم إيصال التيار وهو لم يكمل عملية نزوله، بل لم يكمل عملية الربط، وربما تأخر شيئا قليلا، فانتقلت الموجات الكهربائية إلى دمه الحار، وضربت جميع أعضائه، فأسلم الروح الى بارئها.

لقد كان حادثا أليما، حيث وبعد وصول التيار الكهربائي إلى جسده صرخ صرخة سمعها كل من حضر، ولكن لا أحد يستطيع تلبية صرخته، ولمجرد لحظات أعقبت تلك الصرخة توقف الصوت، ويبست المفاصل، وفاضت الروح، وانتقل الى العالم الآخر، إلى رحمة الله،

لقد كان يعيش الأمل، أمل الحياة، أمل أن يرى أولاده وبناته، لكن ما حدث قد حدث، والرجل مات، بصورة مؤلمة لعل ما يزيد ألمها ان الحدث

لم يبق في إطاره، أي أنه خطأ وحدث، والرجل انتقل إلى رحمة الله، إنما ذيول القضية صارت تتفاعل لدى ابناء جزيرة تاروت، وظهرت اتهامات متبادلة بين الناس، حيت أن وفاته جاءت بعملية متعمدة للقضاء على هذا الكهربائي النادر، لكنها مقولات جاء من محض الخيال ولا أساس لها من الصحة، فالحلو مات، وبقيت قصته ألما، أظن أن أجيالا وأجيالا سوف تتداول قصته، بنوع من المأساة والحزن.

فالحلو كان يعمل في إحدى الشركات، وكان ذلك اليوم يوم إجازته الأسبوعية، وجاء يلعب "الدومنة" مع اصدقائه في قهوة حسن بن الشيخ، وفي لحظة جاءه مندوب الشركة الأهلية يطلب منه إصلاح الخلل في التمديدات، فالبيوت لم تأتها الخدمة، رغم أن مولد الكهرباء يعمل على أحسن وجه، وحينما لبّى نداء الواجب صار ذلك الخلل في التوقيت، والنتيجة أن هذا الشاب الموهوب فقد

روحه وصارت القضية قضاء وقدرا وسجلت الجريمة ضد مجهول، هذا إذا كانت هناك جريمة.

الحائر وبعد أن اكمل قراءة هذه القصة، جالت به الذكريات، وانتقلت سفينة خياله إلى ذلك اليوم التاريخي الذي لن ينساه، فمن عاصره سوف ينقله، فالقضية لم تكن حينذاك وفاة شخص يوم إجازته، وأي شخص ذلك الذي فارق الدنيا، لقد كان شابا وسيما على خلق، يتقن التعامل مع القضايا الكهربائية، في وقت كانت هناك أسر لم تصلها الخدمة، فكانوا يضيئون دروبهم بالفوانيس والشموع، وما أكثر الحرائق التي تمت في البيوت الخشبية، أو البيوت المبنية من سعف النخل، ولم تكن الكهرباء كخدمة أساسية للناس، تقدم عبر شركة مساهمة تملك الحكومة الجزء الأكبر من أسهمها، ولديها من الكوادر الفنية الماهرة الملتزمة بكل أصول السلامة، وإنما كانت شركة أهلية تعتمد على نظام محاسبي قديم، بالورق والقلم والمسطرة، والكهرباء تصل الى من يشترك عن

طريق مولدات، كانت صغيرة ثم كبرت شيئا فشيئا، كما أن الخدمة لا تصل بشكل جيد، وما تلبث أن تنقطع دون سابق إنذار، فيضج الناس من الحر، رغم أنهم لا يملكون مكيفات هواء، فكانوا يقضون ليلهم بالنوم على السطوح حيث تلعب الرطوبة لعبتها، ثم تأتي الحشرات الطائرة، تعقبها شمس الصيف الباكرة التي توقظ النائمين رغما عنهم، بل لا ترحم جالسا أو نائما، ولا شيئا تطاله أشعتها.

لقد تذكر الحائر أنه بكى على الشاب الفقيد، رغم صغر سنه، وعدم إدراكه، لكنه لأول مرة يشهد جثة هامدة، ويلحظ شخصا ميتا، ولكن هذا الموت ليس طبيعيا، وإنما هو موت كارثي، تأكد لديه أن التخلف يقصم الأرواح أيضا.. ولم ينس أنه وقف ليسمع شخصا في المقبرة يسأل أباه حول "كيف انتقلت الكهرباء إلى الحلو" وكان ذلك الشخص كبيرا، ولم يشأ يفجع إبنه وهو صغير بتلك القصة

فقال له:"هذا قدره ياولدي، لقد تكهرب، فلا تلعب بالكهرباء، ولا تقربها حتى لا يصير لك مثلما صار له".

وبينما هو في ذكرياته ووريقاته، وقصة شهيد الكهرباء احمد الحلو، اذا بهاتفه الجوال يرن، فرد عليه فإذا هو صاحبه عبدالباقي حسين الذي لا يسميه إلا بلقبه "الحائر" فقال:

ـ حائر سلامات، صار لي ساعة ارن على الهاتف ولا أرى ردا منك، عسى ما صار لك شر..

فرد الحائر:

ـ لا شر، ولكني تذكرت شهيد الكهرباء

ـ ومن يكون هذا الشهيد؟

ـ ذاك الرجل الذي توفي على عمود الكهرباء

ـ تقصد احمد الحلو؟

ـ نعم

ـ الله يرحمه، لكن ما الذي ذكّرك به، وقد مرت على وفاته أكثر من ثلاثين عاما.

ـ إنها مأساة التخلف في ذلك الزمان، وقصة الكهرباء التي لم تصل الى ما وصلت إليه الآن، إلا على أجساد الضحايا.

ـ لكن الوضع تغيّر اليوم، الآن تجد الكهرباء في كل مكان، والخدمة متوفرة، والناس على أحسن حال

ـ بالفعل هذه نعمة كبيرة، علينا أن نشكر الله عليها، ففي كثير من البلدان في هذا العالم لا ينعمون بهذه الخدمة.

ـ إذا كنت تذكر الحلو، فهو واحد ممن ذهب ضحية الكهرباء، فأنا لا زلت اذكر كلا من محمد آل ابراهيم، وحسين ال صالح، اللذين قدما خدمة لهؤلاء الناس، بأن أسسوا مؤسسة أهلية تقدم الخدمة، ما أن تنقطع الكهرباء حتى يأتي الناس لهم

بالسب والشتم، إلى أن تم بعون الله وبفعل التطور في بلادنا الحبيبة، أن صارت خدمة الكهرباء تصل الى المنازل والمكيفات تعمل بكل راحة طوال فصل الصيف، والأهم من كل ذلك أننا تخلصنا من أعمدة الخشب والمولدات التي كان ضحيتها احمد الحلو، هذه الأعمدة التي تعطي منظرا غير جميل، وهي متعبة في كل شيء.

- على العموم دخلنا في موضوع الكهرباء، ولم أسألك لماذا اتصلت بي، وسالت عنّي، هل هناك شي؟

ـ لا فقط شئت أن أسأل عنك.

ـ سألت عنك العافية

بعدها عاد إلى وريقاته، وقد أخذت قصة الحلو منه مأخذا كبيرا، فالقصة مأساوية جعلته يتوقف لا يستطيع أن يستكمل قراءة الأوراق فقرر التوقف على أمل المواصلة في وقت آخر، توقف عن القراءة في الأوراق، لكن فكره وعقله وقلبه لم

يتوقف أي منهما، فماجت الذكريات لديه، وكأنه يقرأ قصة أو يشاهد مسلسلا دراميا مصريا، أو فيلما هنديا طويلا، وتذكر أن الحياة في البلاد اخذت منحى مختلفا، ففي وقت لم تكن خدمة الكهرباء موجودة لدى الكل، نجدها اليوم موجودة حتى في الخيام وسط الصحراء، وكيف أن الناس كانوا يواجهون حرارة الصيف في اشهر يونيو ويوليو وآغسطس بالنوم فوق السطوح واستخدام المراوح اليدوية، ومن كان متطورا اشترى له مروحة كهربائية، إذا كانت لديه كهرباء، وإذا حل الشتاء فإن التدفئة تعتمد على حرق الأخشاب من نفايات النخيل، بينما اليوم مكيفات الهواء والمدافيء، فضلا عن أجهزة الطبخ والأفران والخلاطات كلها تعتمد على الكهرباء، التي لا يتصور أن تنقطع ساعة دون سابق إنذار.. تلك هي نعمة الباري، الذي يغير الأحوال من حال إلى حال، هنا الحائر كرّر كلمة "الحمد الله على

النعمة"، ولأكثر من مرة، مؤكدا بأن العبرة من هذه القصة هي الوقوف على هذه النقلة.

لم تتوقف أمواج الذكريات تتلاطم في داخله، وهو يرى أهالي جزيرة تاروت ـ وهو منهم ـ ينعمون مثل غيرهم بالكهرباء بما تعني من إضاءة وتكييف وتدفئة وتوفير سبل الراحة، وكان أجدادهم عاشوا وضعا غير متصور لدى أجيال هذا العصر، فمن أجدادهم من عاش ومات ولم ير إضاءة ولم ينعم بثلاجة كهربائية، أقصى ما كان يعمله هو وضع الماء في كراز من الخزف أو الطين ويلفه بقطعة من الخيش لكي يصبح باردا صالحا للشرب، وإذا ما أراد الاضاءة فإنه يعتمد على الشموع، أو الفوانيس التي تعطي إضاءة عن طريق احتراق فتيلة تسحب الكيروسين (الكاز) بل كانوا قد اخترعوا لهم مصابيح خاصة بمثابة زجاجة يتم تعبئتها بالكيروسين ثم يوضع أعلاها بعض التمر تخترقها قطعة قماش تحترق حال الاشتعال، ذلك مصباح يبعث على التلوث، بل ما تلبث هذه

المصابيح محدثة الكثير من الحرائق، وراحت على أثرها أرواح بريئة.

إنها الكهرباء التي قتلت الحلو هي التي يعيش الناس اليوم عليها في كل شيء، فهي عنوان حياتهم ومعيشتهم الحالية، كما كان غيابها عنوان معاناتهم من قبل فالماء يبرد بالكهرباء، ويسخن بالكهرباء، والملابس تخاط بالكهرباء، ويتم غسلها بالكهرباء أيضا، بينما الأجداد كان الماء لديهم ليس باردا وليس ساخنا، وربما ليس نظيفا، لأن حياتهم تمت بدون كهرباء .. فلم يكن من الحائر إلا أن قال :" الله يرحم احمد الحلو فقد كان شهيد الكهرباء"، كما كان غيره شهيدا في الماء، فكم واحد مات غرقا في البحر وهو يسعى لكسب رزقه، أو شهيدا في الحقل.

هنا توقف عن القراءة، فقصة أحمد الحلو ومأساتها جعلته حزينا، وزادته غما وهما وكآبة وحزنا، فقد

توقف مليا عند نقطة التحوّل من الواقع المظلم والمؤلم، الى الواقع المضيء المريح، تلك نعمة ما بعدها نعمة.

توقف الحائر عن هذه المقالة واكتفى، على أمل أن يعود إلى تلك الأوراق، فالقصة مؤلمة، ومتعبة، لكن العبرة هي النقلة التقنية التي عاشها المجتمع، هنا قال الحائر :"أين كنا وأين صرنا.. الحمد لله على النعمة".

- 4 -

لقد عاد مرة أخرى إلى الأوراق، لكنه هذه المرة جاء متحفزا، موطنا نفسه، فحادثة الحلو ووفاته على عمود الكهرباء أوقفته قليلا، حتى أنه قال:"إن هذه الأوراق لا تحمل سوى المعاناة، ولن تجلب لي سوى المأساة، لكني سأقرأها وأسعى لأن استفيد منها، فقد قالوا منذ زمن بعيد أن السعيد من اتعظ بتجارب غيره، فما بالك بتجارب نفسه، فهذه الأوراق تحمل تجاربي، ومواقف عشتها، صحيح أنها عشوائية غير مرتبة، لأن حياتنا عشوائية غير مرتبة، والمواقف والأحداث لم نصنعها نحن، ولكن علينا أن نراجع أنفسنا بين فترة وأخرى، ونقف عند العبرة، ونستفيد من التجربة".

تبعا لذلك التقط ورقة، كانت جديدة هذه المرة، وكانت مرقمة بطريقة الحروف (أ، ب، ج)، ولم تتم بالأرقام (3،2،1) وكان هذا مبعث استغراب

لديه، لكنه تذكر فورا أنها كتبت حديثا بعد وفاة سلمان القديحي بأيام، فالحائر وقف حائرا أمام قصة هذا القديحي، ولم يكن أمامه سوى ان خطّ خاطرة مؤلمة بعنوان"سلمان القديحي" يقول فيها:

سلمان القديحي، أحد أبناء هذا المجتمع، ولد، وعاش، ومات، ولكنه لم يحظ بشيء من متاع الدنيا، ولا من معاناتها، ولم يتخط حدود منزله، أو منزل أبيه.

ولد معاقا، لا يستطيع المشي، رغم اكتمال باقي عناصر وأجهزة جسمه، كالعقل والنظر والسمع والإحساس وغير ذلك، لذا لم يلعب مع الأطفال، ولم يعش براءة الطفولة كاملا، ولم يذهب إلى المدرسة، ولم يتعلم شيئا، لذلك لم يتشاجر مع أحد، ولم يرسم في عقله لوحة من الذكريات التي يظل كل إنسان يتذكرها حتى يلاقي حتفه ومصيره المحتوم.

سلمان يعرفه الجميع لا يزعج أحدا، ولا أحدٌ يزعجه، أقصى ما كان يعمله هو الجلوس على قارعة الطريق، يرى من يذهب ومن يجيء، ربما جلس مع بعض الناس يتحدثون معه، ويتحدث معهم، لكنه ولد كي يعيش وحيدا، ويموت وحيدا

لا أحد يذكر انجازات تاريخيه له،

ولا أحد يذكر أي أذى ألحقه لأحد

لم يلعب..

لم يذنب..

لم يَضرِب

لم يُضرب..

لم يغلب أحدا، لم يغلبه أحد، انما عاش مغلوبا على أمره، لا يدري أين يكون مصيره، ولا يعرف أنّي ستحط رحلته في هذه الدنيا.. لا المال، ولا النساء، ولا المناصب، ولا الوظائف، ولا الألعاب

والمقتنيات، تهم سلمان، لأنه لم يتداولها، ولم يتعامل معها، ولم يعرف طريقها، ولم يفتح ذهنه عليها، أو على بعضها.

عقل سلمان نظيف..

قلب سلمان أنظف..

سلمان القصة.. سلمان الضحية.. سلمان المعاناة.. سلمان القديحي الغريب الذي لم يشعر أحد بغربته، لقد مات نقي السريرة، نظيف السيرة، لم يخالطه الحقد على الناس، حتى أنه لم يعتقد أن له حقا على هؤلاء الناس.

لقد تحملته أسرته الطيبة كثيرا، لكنها ربته كي يموت، كي ينهي مسيرته الحياتية، إذ لا أمل، ولا طموح، ولا تطلع، وتبعا لذلك لاصراع مع الذات، ولا مع الآخر.

إنه قصة النقاء، وقصة الصفاء، هي قصة سلمان القديحي، لقد عاش على هامش الحياة، ومات ولم يشعر به أحد، بل لم يشعر بفراقه أحد.

حياة سلمان لم تكن طبيعية، عدا أنها بلا أحداث جديدة ولا أحداث مستجدة، ولم يكن يطمح لأن يغيّر واقعه، أو يغيّر واقع غيره، فلم يخالطه شعور بأنه قادر على التغيير، فلم يقرأ شيئا، لأنه لم يتعلم كي يعرف أن هناك شيئا إسمه التغيير.

حياته روتينية قاتلة..

لقد انتقل إلى الباريء بكل هدوء، لم ينزعج أحد، لم يبكه أحد، لم يحزن أحد على وفاته، بل كلنا حزينون على حياته، التي جاوزت الأربعين عاما، لله درّه كيف عاش دون أن يموت كمدا، او يلقى حتفه غضبا، على الله الذي خلقه معاقا، على الناس الذين لم يسعوا بل لم يفكروا في أن يضعوه ضمن أجندتهم، على أهله الذين لم يعالجوه، أو يؤهلوه

كي يعيش مثل العشرات من المعاقين جسديا وعقليا، فالكثير من العباقرة والمبدعين هم من المعاقين جسديا مثل سلمان.. اكتفى الناس بأن نظروا إليه نظرة شفقة ورحمة، لم يصدر أحد بحقه كلمة نابية، أو لفظة شاذة، أو تصرفا غير أخلاقي بحقه.. الناس ظلموه، هذا شيء صحيح، لكنهم لم يتعرضوا لكرامته، ولم يخدشوا مشاعره، لكنهم وقفوا جميعا عاجزين أمام عجزه، تأسفوا جميعا على هذه الحياة، التي لم ينل سلمان نصيبا منها، كان يأمل أن يكون مثل هؤلاء الناس، أن يلعب مع الأطفال، ويدرس مثلهم، ويكبر مثلهم، يخطيء مثلهم، يعمل مثلهم، يتزوج مثل كل حيوانات الأرض، ولكن الله جل شأنه ـ كما يبدو ـ خلقه آية على الناس، وسوف يجزيه الجزاء الأوفى، لا حكما عليه، وإنما ثقة برحمته وعدله.".

هنا توقف الحائر، بعد أن انتهت خاطرته عن سلمان القديحي، فكرجت دمعة من عينيه، وصار يئن وينتحب مثله مثل أي امرأة ثكلت بأحد أبنائهِا،

وصار يصيح مكررا" سلمان.. سلمان.. سلمان" حتى أن اخاه الأصغر حسن الحائر جاءه وقال له:

ـ ما بك تبكي، ما الذي جرى؟

ـ لقد مات سلمان

ـ أي سلمان ذا؟ في البلد عشرون شخصا إسمهم سلمان، كلهم ماتوا، أو سوف يموتون.

ـ لكن سلمان القديحي غير!

ـ اتقصد ذلك الفقير المسكين المعاق، فقد مات منذ زمن، ما الذي ذكّرك به؟

ـ هذه الأوراق!

هنا تأوه الأخ الأصغر وقال:

ـ الأوراق مرة أخرى، وقصتنا ما انتهت مع هذه الأوراق.

ـ القصة لن تنتهي، لأنها قصة حياتي.

ـ لكنك لم تتحدث عن نفسك، وإنما تحدثت عن سلمان القديحي، هذا الفقير المرحوم.

ـ سلمان القديحي، قصة ألم، في هذا المجتمع التعيس، المجتمع الظالم.

ـ لم أفهم فلسفتك، فهو فقير قضى نحبه، وغادر الدنيا، ووفد على الكريم.

ـ ألم يكن في المجتمع رجال يقضون على معاناته، ويرفعون من وضعه.

ـ هذه مهمة أهله.

ـ أهله كانوا فقراء، لم يكن لديهم الوعي الكافي لحل مشكلته، ليعيش مثل غيره.

ـ لقد مات وانتهت قصته.

ـ نعم لقد انتهت قصته، لكن قصة المجتمع مع هؤلاء الناس لم تنته ولم تتوقف، وما زلنا نسيء الى هؤلاء الناس، فـ "سلمان" لم يكن معاقا إلا في رجله، بينما عقله أنظف من الكثير ممن يمشون

على رجلين، أو على أربعة أرجل، لكن الرعاية والعناية.

في هذه اللحظة وجد الأخ الأصغر نفسه أمام شخص لا تنفك حجته، ولا تتوقف كلمته، فهو يبكي على شخص توفي منذ سنوات، ففضل الانسحاب من الحوار، بينما الحائر الكبير لم يشأ أن ينسى سيرة سلمان القديحي، أو يتغاضى عن قصته.. هنا تذكر جملة من المواقف مع هذا الـ "سلمان" الراحل المعاق، اذ لم يستطع ان ينسى أنه في كل يوم يمر على الزقاق الذي يجلس عنده سلمان، فيجده لوحده شغله يرد السلام على المارّة، وينظر الى الناس، وهي بدورها تنظر إليه، لم يملك أحد الجرأة ليقدم حلا لمشكلة سلمان، وقفزت في ذهن الحائر فكرة إقامة مركز للمعاقين، لكنه تراجع قائلا:"هناك مراكز كثيرة لا أحد يسأل عنها، بل أن كثيرا من الناس لا يعرفون الطريق المؤدية لها".. وخلص الحائر الى القول:"رحمك

الله يا سلمان، ورحم الله أيّامك، وعوضك عنها بالجنة".. كتب الحائر شيئا عن سلمان، وتحدث عن سلمان ، ولم يحل مشكلة سلمان ولا غير سلمان.

ـ 5 ـ

جلس الحائر بين أوراقه المتناثرة، التي لم تأخذ شكلا واحدا، فقد كتب حسب توجيهات الإستاذ أحمد عواد عن كل شيء، حتى "اللاشيء" كتب عنه، بمعنى أنه كتب كلمات لم يفهمها ولا يدرك معناها، إنما هي خطرات تمر على قلبه، وخلجات تتحرك في وجدانه.

وبينما هو بين تلك الأوراق، بعضها أبيض ناصع، وبعضها أصفر لامع، وبعضها قطع من الكرتون، وبعضها... الخ إذا به يعيد قراءة قصته مع الدارسة والمدارس، وجالت به الذكريات بأنه ذات يوم في غمرة حبه للكتابة توقفت عجلة ذهنه، وشعر بأنه لا يستطيع المواصلة في هذا الطريق الصعب، فما كان منه إلا أن التجأ الى الذكريات الأولى من حياته، خصوصا في المدرسة، فأخذ

يتمعن في مقالة طويلة كتبها بهذا الخصوص، حملت عنوان (أيامي في المدرسة)، يعرض فيها قصة دخوله الى هذا العالم، الذي لا يختلف كثيرا عن الموت والولادة، لا بد وأن يمر عليهما كل إنسان.

يقول الحائر عارضا بعد اللقطات من حياته في المدرسة :

لقد جاء اليوم المحدد، ذلك اليوم البارد، بل شديد البرودة، الشمس لما تطلع من عالمها الغيبي، بل كانت تغازل الفضاء، وتظهر وتسطع بخجل، ذهبت بمفردي الى المدرسة الواقعة بحي الدشة الحديث، بعد أن قررت وزارة المعارف ترك العمل في المدرسة السابقة التي تدعي بمدرسة "الغالي" الواقعة على الطريق المؤدي للمقبرة، لأنها باتت غير صالحة للحياة، وصارت خطرا على كل من يرتادها، فهي مدرسة قديمة آيلة للسقوط، وطالما سقط سقف واهتز عمود بها،

وأكثر من مرة سقطت حجرة كبيرة أو صغيرة على رأس بعض الطلاب وسالت دماؤهم، بالتالي فالطلاب باتوا على خطر جراء تلك المدرسة، ولكن حتى يتوافر البديل لا بد من مبنى مؤقت، حتى تتم عملية الدراسة التي لا ينبغي أن تتوقف مهما تكن الظروف.

في ذلك اليوم الشتوي القارس، ذهبت الى المدرسة بمفردي، رغم كوني طفلا وهذا يغاير ما هو قائم اليوم حيث يقوم الأب بإيصال إبنه في أول يوم دراسي، كي لا يشعر بالخوف والقلق من هذا العالم الغريب..حينما ذهبت إلى المدرسة التي عرفنا موقعها، فهي بمثابة منزلين متقابلين أحدهما يملكه شخص من آل افريحين، والآخر يعود لملكية شخص من آل رمضان، وقفنا جميعا أمام المنزلين ننتظر لأن نسمع أسماءنا، ثم فصولنا ونلتحق بالفصل والمكان المحدد، هناك جاء استاذ يدعى أحمد ابو الهيجاء وكان ذا وجه أحمر اللون،

من الواضح أنه ليس من أبناء هذا البلد، عدا أن بسمة عريضة صادقة أبداها للطلاب الصغار، فطلب منهم الهدوء فهدأوا وصمت الجميع، ثم أخذ يذكر الفصول وأسماء الطلاب المفترض التحاقهم بها، وأعلن ان اسمي في الصف الأول / ب في المنزل الشرقي (منزل آل افريحين)، والذي بات يسمى مدرسة تاروت الابتدائية فدخلت مع طابور الطلاب إلى المدرسة (أو مبنى المدرسة) فقام مدرس آخر يدعى محمد عرفات وقام بتوزيع الطلاب على المقاعد، وضع الطلاب الأكبر سنا، في المقاعد الخلفية، بينما الطلاب الأصغر والأقصر كان مكانهم في المقدمة، وبالنسبة لي صرت في الصف الثاني، مع ابراهيم الأبيض، وحسن نويس، وعبد الوهاب فتيل، وسعيد خاتم، وعبدالغني النهاش.

بعد أن جلسنا على الكراسي المعدة لنا، جاء الأستاذ احمد أبوالهيجاء وصار يردد معنا أنشودة يعرفها الجميع:

" بطه يابطة .. شيلي الشنطة، شنطة خفيفة زي الريشة، تلعب كورة براس تنورة"

وكان كل طالب يردد ما يقوله الأستاذ، والبقية تصفق سعيدة مسرورة، وكان أبو الهيجاء سعيدا أيضا مع الطلاب، ثم راح يردد معهم أنشودة كلما قرأ مقطعا طلب من الآخرين إعادته والغرض من ذلك هو الحفظ :

"مدرستي محبوبتي .. ياقرة عينيا،

فيها العلم والآداب والأخلاق العالية،

ترفعنا درجة درجة ترفعنا للمية،

يحيا ملكنا فيصل والأمة العربية "

فكان أول حصة هي حصة أناشيد، وكان يسأل كل طالب عن إسمه فيقول الواحد:"أحمد"، فيرفض الأستاذ ذلك ويقول له :"إذكر اسمك وإسم الوالد واسم العائلة"، فجاء دوري وقلت له

اسمي:"سعدون سعيد الحائر"، فضحك الأستاذ، وضحك الجميع.. وما هي إلا ساعة وطلب من الطلاب الذهاب إلى المنازل، والعودة غدا في الوقت نفسه، قائلا:"يالله .. يا الله على البيت يا عيال البيت"، فانطلقت زرافات الأطفال منطلقة نحو الخارج، حيث لا سيارات ولا دراجات نارية، يمكن أن تنال أحدا من هؤلاء الطلاب فراحوا جميعا يرددون:"على البيت يا خمام البيت"، خلافا لما يقوله الاستاذ.

وفي اليوم الثاني جئت إلى المدرسة مبكرا، وكنت من أوائل الطلاب، ووقفت في الطابور مع زملائي في الفصل، وفقد عرفنا جميعا مواقعنا، وعرفنا أين سنكون ودخلنا الصف وكل كل واحد مقعده، وكان الأستاذ محمد تحسين هو رائد الصف، فطلب من كل الطلاب الالتزام بالهدوء فردد قائمة بالتعليمات التي يجب على الطلاب أن يلتزموا بها، منها عدم الخروج من الصف، وعدم الفوضى، وعدم الكلام بدون إذن.... الخ ، وعيّن

داخلي INTERNAL

أطول طالب في الصف وهو عبد العزيز المسجن عريفا يقوم بدور المدرس أثناء غيابه، في الحفاظ على الهدوء، فطلب من المسجن أن يقف أمام الطلاب، فهو سوف يخرج للحظات وسوف يعود، وبالفعل وقف المسجن أمام الطلاب، لم يتكلم أي منهم، وكان كل واحد جالسا شابكا يديه، واضعا لهما على الطاولة في صمت رهيب وكأن على رؤوس الجميع الطير.

جاء الأستاذ محمد تحسين وبرفقة أستاذ سعودي آخر لكنه كان لابسا قميصا ورديا مع بنطلون ازرق ويدعى الأستاذ جاسم السعيد ومع الفرّاش حسن الطويل، والفراش محمد المحروس، وجميعهم يحملون الكتب الدراسية للطلاب، فقال الأستاذ محمد تحسين (وهو من يحمل التابعية الفلسطينية):"أي طالب يسمع إسمه يرفع يده"، فنادى على الطلاب جميعهم واحدا بعد واحد، وكل من يسمع إسمه يقوم الأستاذ بإعطائه الكتب

المخصصة له، إلى أن تم توزيع الكتب على الجميع وهي عبارة عن كتب "المطالعة، والحساب، والخط، والعلوم" وطلب الأستاذ محمد تحسين من كل طالب أن يحضر معه مصحف (جزء عمّ فقط) مع قلم رصاص، ومسطرة، ومبراة وممحاة، وثلاثة دفاتر (20 ورقة) كلها توضع في حقيبة مدرسية ملائمة.

وبهذه الصورة صارت الدراسة روتينية متعبة، حضور صباحي يتم رغما عنا، مع شدة البرد لا أحد يستطيع أن يتأخر عن الطابور، وما أن يدخل الطلاب يقوم العريف يراقب الوضع ويضبطه، فالدخول إلى الصف يعني البقاء طول الفترة الدراسية من الصباح الى الظهر، لا يسمح بالخروج إلا في فترة قصيرة هي فترة "الفسحة" التي لا تزيد عن نصف ساعة، لا يمكن لأي أحد منا الخروج من الصف حتى لو كان محتاجا للحمام، أو راغبا في شرب الماء، على الطالب أن يصبر ويتحمل كل ما قد يطرأ عليه، فلا الكلام

مسموح، ولا الحركة مسموحة، ولا الخروج مسموح، فمن يخالف يلزمه العريف، أو المدرس بسلطة القانون، قانون المدرسة.

ورغم أن أيام الدراسة جميلة، ولحظاتها رائعة، إلا أن الشيء الذي لم أفهمه ـ حتى هذه اللحظة ـ هي أن تسجيل الطلاب يتم بشكل يومي، إذ يأتي المدير فهد الرزيحان أو المراقب الفلسطيني يوسف عيد، يستعرض الأسماء وقد يضرب أحدهم لو لاحظ وضعا غير طبيعي، دون أن يستأذن من المدرس الموجود.

الطلاب يتحملون المعاناة، خصوصا معاناة الاستيقاظ باكرا، ويتناولون فطورهم بشكل سريع، وما أن يصلوا إلى المدرسة عليهم أن يقفوا أمام الطابور، فمن يتأخر عن هذا الطابور ولو دقيقة سوف ينال عقابا على هيئة تعذيب بدني، كأن يأخذ لطمة (كفا) من أحد المدرسين، أو لسعة عصا من

المدير، أو المراقب، وكأننا جميعا في ثكنة عسكرية، أو سجن يريدون ضبط العناصر الموجودة، ومن ينسى ـ وسبحان الذي لا ينسى ـ كتابة الواجب أو أداء ما تم تكليفه به في المنزل، أو حتى لو رآه المدرس ماشيا في الشارع، حينها فإن وجبة تعذيب غير متوقعة سوف تطاله، سواء بالضرب بالعصا على باطن اليد أو على ظهرها في الصباح الباكر في الشتاء، أو ينال وجبة (فلكة) على رجليه، أو على مؤخرته، فضلا عن جملة من الكلمات النابية مثل :"حمار، جحش، كلب، نوَر، بقر، خروف، تيس..."، فقد عرفنا كل حيوانات فلسطين المحتلة من المدرسين.

كل أيّام المدرسة جميلة، وذكرياتها رائعة، منها "أسبوع النظافة" حيث تجرى مسابقة بين الطلاب حول من يكون الفائز بالجائزة، بمعنى من هو الطالب الأنظف، فتجري منافسة بين الطلاب لنيل تلك الجائزة، انطلاقا من أنشودة موجودة في كتاب المطالعة يقول مطلعها:"الولد النظيف منظره

ظريف" .. فالطلاب خلال هذا الأسبوع، أو اليوم يلبسون أفضل ما لديهم، وفي ذلك اليوم فإن كل طالب ـ ولا شك ـ قد اغتسل بماء ساخن، وقام بتنظيف بدنه، خصوصا وجهه بالماء والصابون، ولكن الذي يحصل في تلك الجائزة يتم اختيار الولد أو الطفل الأنظف ثوبا والأجمل شكلا، ويمنح بعد ذلك جائزة وهي عبارة عن معجون أسنان (ماركة كولجيت) مع فرشاة، وربما كان معها مشط للشعر.. إن هذه المسابقة لم يفز بها واحد مثلي، رغم المحاولات التي بذلتها، أو كنت ابذلها لأحصل عليها، ولكن هناك من هو أنظف (أو أجمل) مني مثل شوقي آل تركي، وحسن على نويس، وخالد ال محسن، وناصر أبو سرير.

وكانت المدارس تطلب من الطلاب لأكثر من مرة في كل عام التبرع لدعم المقاومة الفلسطينية، وهو ما اصطلح عليه بـ "ريال فلسطين"، فالطالب بدوره يأخذ من والده ريالا، وقد يتبرع هذا الوالد

بخمسة ريالات، ويستلم ولده سندا باستلام المبلغ، نعم يدفع كل طالب ريالا على الأقل، رغم أن المصروف اليومي لكل طالب لم يكن يصل إلى نصف ريال، ومن يعطى ريالا كمصروف يومي فلا شك أن والده من الفئة الثرية، ممن التحقوا بشركة الزيت العربية الامريكية (أرامكو).. إن "ريال فلسطين" هو بمثابة عملية تنظيم للتبرعات الشعبية لصالح القضية الفلسطينية، هذا غير ما كانت تقدمه الدولة لصالح هذه القضية.. وما لفت نظري ـ ونظر العديد من الطلاب ـ أن مسألة التبرع لفلسطين تتم مرتين في السنة، إلا أن الأستاذ خليل غطاشا هو فلسطيني عنيف، صلف، لا يتقن من فن التدريس شيئا، إذا ضرب لا يعتمد إلا المسطرة الخشبية على ظهر اليد، هذا المدرس مع تواضع إمكانياته العلمية كان يأخذ تبرعات يومية من الطلاب باسم فلسطين، فهو "شين وقوي عين"، وذات يوم قام أحد الطلاب بالتبرع بقرش قد تراكم عليه الصدأ، فلو ذهب به إلى بقالة

المرحوم الحاج سعيد معيبد، أو المرحوم معتوق الصديق لما قبل هذا القرش، فظل غطاشا حائرا بين قبول القرش أو رفضه، وماذا يعمل مع هذا الطالب الماكر، فما كان منه إلا آن قبل القرش، وقال لذلك الطالب :"اجلس يانوَر"، وكلمة "نوَر" بفتح الواو تعني قليل الأصل، وتنسب إلى جماعة الغجر في بلاد الشام، إنها شتيمة شامية لا يفهمها غيرهم.

رغم تلك القساوة، إلا أن شيئا من الانضباط والالتزام بالوقت، وبأداء الواجب، فضلا عن تعلم المواد العلمية بشكل جيد، هي النتيجة التي أفرزتها تلك القسوة، التي أراها مطلوبة في بعض الأوقات، بل أن العديد من القضايا لم تكن لتحل لولا الردع والعقوبة، ولكن مع ذلك كان بعض المدرسين من ذوي الجنسيات العربية تتسم بالقسوة في التعامل، والضرب على أتفه الأسباب، فإذا كان الطالب ملتزما بأداء الواجبات، وكذلك بالحضور،

لماذا يستحق هذا الطالب العقوبة كالضرب والإهانة لمجرد أن المدرس وجده يلعب في الملعب أو الشارع، في غير أوقات الدراسة، أليس من حقه أن يلعب وهو طفل، ذلك عمر اللعب واللهو. يضاف إلى ذلك وجدنا من المدرسين من هم على مستوى عال من الأخلاق والإخلاص منهم الأستاذ صادق وكان طويل القامة، ذا صوت رخيم، مرعب إذا غضب، لكنه طيب القلب، رقيق العبارة، يتقن المادة العلمية التي يقدمها، وكذلك أستاذ أديب علام وهو لبناني (كما أظن) مدرس لغة عربية، يتسم بخط رائع، ويحمل بسمة دائمة، وكذلك الحال مع الأستاذ احمد أبوالهيجاء، ومحمود ابو الهيجاء.. بينما هناك مدرسون اشتهروا بقسوتهم وخروجهم عن المألوف مثل خليل غطاشا، وخليل غزاوي، و زقوت، ويوسف عيد.. ولعلّي أتذكر هنا أن طالبا قضى حاجته في الصف، وطرده خليل غطاشا، فخرج من المدرسة ولم يعد، بل لم يعد إلى مقاعد الدراسة طوال

عمره، ولم يتخط الثاني الابتدائي، خوفا من خليل غطاشا.

على العموم استمرت فترة الدراسة بكل ما كانت تحمل من ايجابيات وسلبيات، مع ملاحظة أن السنوات الثلاث الأولى كانت في الفترة الصباحية، بينما السنوات الثانية تمت في الفترة المسائية، وذلك لضيق المساحة، وزيادة عدد الطلاب، فالمدرسة عبارة عن منزلين مستأجرين، ولم يتم تصميم أي منهما ليكون مدرسة، فذلك غير وارد لأن المساحة لم تتعد الــ 300 متر مربع، بينما تحتاج المدرسة على الأقل إلى مساحة لا تقل عن 2000 متر مربع على الأقل .

ولعلّي وأنا اقيّم ذلك الواقع، واسرد تلك الذكريات، أجد أن الدراسة في ذلك الوقت كانت تسير بخطى حثيثة، وكل خريجي تلك المرحلة هم في مواقع جيدة على السلّم الوظيفي في الدولة، بيد أن هناك

داخلي INTERNAL

ضحايا لم نجد لهم حلا في تلك الفترة لعل منها أن احدهم قضى خمس سنوات من عمره في الخامس الابتدائي، والسبب أن يده لا تساعده على رسم الدائرة والمثلث والمستطيل، وفي كل سنة يكمل (يرسب) في مادة الهندسة، وفي كل سنة يعيد دراسة المناهج التي درسها في العام الماضي، حتى بات حافظا لها، وبعد ذلك يئس من المدرسة، وغادرها ولم يكمل الخامس الابتدائي.

وبعد المرحلة الابتدائية انتقلت إلى المرحلة المتوسطة وكان هناك عالم آخر ومواد دراسية أخرى، مثل اللغة الانجليزية ولكن الطريقة ذاتها لم تتغير، ونمط العقوبات هي هي لم تلغ، عدا أن أسماء جديدة في عالم العنف التدريسي ظهرت من الاستاذ عدنان حسن، ذلك المدرس الذي دعا عليه بعض الطلاب بالهلاك لما عرف عنه من القسوة، ولما عانوه منه من تعسف ورعونة، فسافر إلى الإردن وتعرض لحادث مروري غاب سنة كاملة عن التدريس، لكنه بعد تلك السنة عاد لا يستطيع

المشي بشكل طبيعي، فلديه حالة عرج في إحدى رجليه، والكل توقع أن تنتهي قسوته، وتتكسر شوكته، لكنه عاد بصورة أشد قسوة، أو بالأحرى لم يتغير، يضرب ويسب ويشتم، ودائما يكرر لِأي طالب يضربه بأنه يريد تربيته كي يكون رجلا، ولا أعلم كيف يكون رجلا من تسحق كرامته وتهان شخصيته ويتم ذلك أمام الطلاب؟!.

أما مدير المدرسة فقد كان الأستاذ ابراهيم الهارون، فهو إداري ناجح، يتقن التعامل مع الطلاب، يتعامل معهم كأبنائه، فهو يلعب معهم كرة الطائرة، ومشكلته انه كان رئيس نادي الجزيرة بدارين، وكانت هناك منافسة بين هذا النادي ونادي النور بسنابس، وتدخل هذه المنافسة بقدرة قادر إلى المدرسة، ففي حال صارت المباراة ربما أعطى إذنا بالخروج مبكرا لأي مباراة للاعبي نادي الجزيرة، ولم يعط ذلك الأمر للاعبي نادي النور، خاصة إذا كانت المواجهة بين

الفريقين، وحينما دخل نادي الهدى بتاروت حلقة المنافسة مع الفريقين، لم يكن أمام الهارون إلا التعامل مع الجميع بمسافة واحدة، فقد غلّب الجانب الوظيفي على الجوانب الأخرى.

تلك هي أيام الدراسة بما تحمل من حوادث، أفضل ما فيها العلم والمعرفة، والصداقات، وإن تخللتها بعض المنغصات، فتلك هي طبيعة الحياة فلا كامل إلا وجهه الكريم.

***

توقف الحائر عند هذه المقالة ليحدث نفسه مؤكدا بأن الدراسة في هذه البلاد باتت مختلفة في الوقت الحاضر، أين تلك الأيام من هذه الأيام التي نعيشها اليوم، فالوضع مختلف كليا، فالدراسة اليوم باتت متطورة، والمناهج مختلفة، والمدرسون مختلفين أيضا، وكل شيء بات مختلفا، وتساءل بينه وبين نفسه حول الفرق بين التعليم في الزمن الحاضر عنه في الزمن الماضي، ليصل إلى نتيجة مهمة

داخلي INTERNAL

هي أن العلم اليوم كثير، والمتعلمون قلة (رغم كثرتهم العددية)، بينما كان العلم قليلا في الزمن الغابر، لكن طلابه كثيرون (وإن قل عددهم)، فاليوم الطالب مدلل في كل شيء، مصروف الجيب عال، ملابس راقية، مدارس حديثة مجهزة للعمل، فلا ضرب ولا سب، لكن الاهتمام من قبل أبناء العصر الجديد لايقاس باهتمام من كانوا في الزمن الماضي رغم قسوة الظروف كلها.. تلك قصة العلم لدى الحائر، وقصة المدرسة، وأيّامها، فكما تكتب الهموم والمشاكل، تكتب الذكريات والأيام الجميلة أيضا.

– 6 –

لم تكن الحيرة إلا جزءا من حياة سعدون الذي ما فتأ يشك في نفسه، ويشك في غيره أيضا، ويظن أن هناك من الأشخاص من ينظر إليه، ويتمنى القضاء عليه، ونفيه من الأرض.

وفي هذا الوضع خاض سعدون صراعا داخليا بين تيارين فكريين، يعتملان في داخله، تيار يقول:"بأنك أيها الحائر عظيم وكبير ومتفوق ومبدع، لكن هناك من يضمر إليك الحقد والحسد، ويريد بك السوء، ويسعى لإسقاط شخصيتك".. بينما يقول تيار آخر:"أيها الحائر بأن الحياة واسعة، وأن المحبين لك أكثر من المبغضين، ولماذا يبغضك الناس، وأنت إنسان صالح، لا تضمر ولا تظهر العداوة لأحد، فهل العداوة تأتي بدون مقدمات، وبدون عوامل تسببها، إننا الذين نوجد الكراهية بين أنفسنا فيكرهنا الناس، وما هذه الكراهية إلا لأننا أسسنا أساس الكره، ولو أن كل

واحد حاسب ذاته ووقف أمامها، ومنعها عن أن تكره أو تحقد لأصبحنا في عالم أفضل، عالم يتسم بالحب والتعاون".

هنا وقف الحائر على مفترق طريقين، بين أن يهوي بمستنقع، أو يعلو في مكان مرتفع، بين أن يسقط في أوحال الحقد والكراهية، ويعيش في قفص "هذا يكرهني" و"هذا يتآمر علي"، أو يحيا حياة عطرة يطيبها الحب، وتنير دروبها الأخوة والصداقة.. لا شك أن الخيار الثاني هو الأفضل إذ لا أحد يميل إلى النار وهو يرى النور، ولا أحد أيضا يهوى المزابل ويترك العطور والحدائق والأزهار.. هنا قرر أن يوقف هذا الجزء من مسلسل حيرته، ويهدم جدار التردد والشك وحبائل الشيطان، فلا خيار بين الذنوب والطاعات، والنار والجنة، فهل من عاقل يختار غضب الله على رضاه، فالحقد والكراهية والحسد وسوء الظن كلّها أمراض نهى الله عنها، وعدّها من الأعمال

الموبقة، والتي لا تجلب لصاحبها سوى السوء، ولا يحصد منها إلا المرض والتعب، بينما الحب وخدمة الناس والتواضع لهم هي أعمال حسنة محمودة ينال فاعلها جزاء الله وثوابه.. فأيّهما أفضل أن أعيش مرتاحا، أسعد مع سعادة الناس، أم أحيا مكتئبا، أغضب إذا خلت الآخرين يسيرون في وضع أفضل، ولماذا أشعر بأن ثمة من يكرهني؟ ولماذا يكرهني؟ ولماذا تسلل هذا الشعور المزعج، وظهرت على روحي أدران الجاهلية، وأنا في عصر العلم والحضارة، وهل هناك دليل على أن فلانا أو علانا يكرهني ويسعى لأن يتخلص مني؟

وهنا ـ ودون سابق إنذار ـ تذكر أنه عرض قصة أحدهم كان قد تمكّن منه شعور مشابه، وكانت نهايته جراء هذا المرض النفسي، وراح بين غابة الأوراق يبحث عن قصة خطّها بيده، وسرد العديد من فصولها، لأن فيها تفاصيل وعبرا عديدة، يجد الحائر من الضرورة الاطلاع عليها ونقلها إلى

الآخرين. وبعد جهود ليس طويلة، استطاع أن يقف على تلك القصة التي حملت عنوان "عبود المجنون .. الصراع الذاتي"، وقد كانت حالة صاحبها مثل حالة الحائر النفسية.

تقول هذه القصة التي خطّها سعدون كأول محاولة له في كتابة القصص والخواطر والمقالات، أن شخصا يدعي عبّود المجنون، هوى بشكل متدرج، وفارق الدنيا مليئا بجملة من الأمراض الجسدية والنفسية المتداخلة، مثل قرحة المعدة، وتشنّجات القولون، والداء السكري، وارتفاع ضغط الدم، وما يصاحب هذه الأمراض من أعراض كنحول الجسد وضعف البصر إلى درجة الصفر، وما استتبع ذلك من وضع متأزم جعلته ـ قبل أن يهلك ـ في حالة يرثى لها .

لقد وجد الحائر قصة هذا المجنون تائهة بين كوم الأوراق الذي عبث به الزمن، فما كان منه إلا أن

حاسب نفسه وعاتبها على نسيان هذه القصة، وكيف سمح للشيطان أن يتسلل له عن طريق شراك الشك في الناس والحقد عليهم، وكاد أن يقع كما وقع المجنون في جنون العاقلين، وأسوأ أنواع الجنون حينما يصدر من الذين كانوا عقلاء.

لقد استعرض الحائر قصة عبود المجنون وكان بداية هلاكه هي الشك، ونهايتها هي النهاية الحتمية، ولكن جاءت مصحوبة بسوء السريرة وسلبية السيرة، والله المحاسب وكفيل العباد

لقد كان المجنون ـ حسب ما خطّه سعدون ـ سليما من الناحية الجسدية، منتجا في حياته العملية، إذ عمل في مقتبل عمره صيادا وأنتج، وهل هناك أفضل من الناحية الصحية من الصيادين، الذين يستنشقون الهواء النقي في الصباح الباكر، ففي كل يحمل عدة صيده ويذهب إلى البحر، حتى تمكن من العملية وتوسع في نشاط الصيد، حتى صار تاجرا كبيرا للأسماك، ويعمل تحت إدارته

عشرات العمال، وصار يتعامل مع جملة من العاملين في القطاع السمكي، من صيادين وتجار تجزئة وتجار جملة ومستهلكين، فضلا عن أصحاب الفنادق والمطاعم وما شابه ذلك.

جرت النعمة بين يديه وصار يقضي أوقاتا جميلة في هذا العالم الرحب، فلم يترك متعة إلا وزاولها، فالسوق يتحرك، وأعماله تسير على حسب ما يرام، ولا شيء ينغّص عليه عيشه، وكلما دخل في منافسة مع أحد كان هو الكاسب الأكبر، حتى صار متضخما فاحش الثراء، لكن هذه الأموال جرّت الى الطغيان فنال أقرب المقربين إليه، وهو والده ووالدته، فلم يكن بارا بهما، بل كان عاقا، وزاد في الأمر سوءا أن تمادي في يوم ما - بل في أكثر من موقف تجرأ على والده بالسب والشتم، ومن ثم وصلت الأمور لديه أن رفع يده ولطم والده على وجهه، حتى خرّ الوالد حزينا، اضطر لأن يغادر منزل ولده، ويسكن مع زوجته (أم عبود) في شقة

مستأجرة، يلفه الحزن والألم والأسى، وما بقي من العمر طويلا حتى فارق الدنيا جائعا مهموما حزينا من سلوكيات إبنه العاق، وبعد وفاته لم تشأ تلك الوالدة أن تعيش مع إبنها، بل سكنت في مكان آخر لا يقارن بما يملكه ابنها ذلك الثري الفاحش، الذي يتلاعب بالأموال، ويتفاخر بها، ويلبس أرقى الثياب وأزهاها، ويأكل أفضل الأكل، ويركب أفخم المركبات وأحدثها.

مضت الأمور والأحداث تتابع على هذا المجنون، الذي دخل في مغامرات مالية عديدة، نجح في بعضها وحقق المزيد من الثراء، وظن ـ بعد ذلك ـ ان جميع الناس تكرهه، وتسعى للنيل منه، فصار يؤمن بالحسد والعين، وأن المؤامرات وعيون الحساد هدّت الجبال، وكان يسير وفق وسواس معين يحركه تجاه الناس، يجعله يشك في كل شيء، حتى الماء الذي يشربه، والطعام الذي يأكله، وتقدمه له زوجته، التي كانت أول من نالتها رياح الشك، فقاطعها، ولم يلجأ إلى زواج آخر، بل

قرر أن يعيش وحيدا في فيلته الفاخرة، ثم بدأ مسلسل الشك يطال أبناءه الأربعة، تطور وصار يشك حتى في الماء والهواء، وحتى الأرض التي يمشى عليها، والسيارة التي يستقلّها، حيث يظن أن أحدا ما يريد أن يضع له قنبلة لاغتياله، ومن ثم السيطرة على أمواله.

تراجع نشاطه التجاري، فالمؤسسة قام ببيعها وأودع أموالها في البنوك، وبطرق سرية لا أحد يعلم بها..

تطور مرضه النفسي إلى أمراض جسدية مختلفة، إذ أصيب بمرض السكري، وظهرت جملة من الأمراض والأعراض المصاحبة، لم يشأ الذهاب الى المستشفى اعتقادا من عند نفسه أن المرض الذي لم يأته إلا من عمل سحري قام به أحدهم، وألقى باللائمة على بعض أولاده وإخوانه،

وزوجته أم أولاده فتفاقم المرض وزادت العلة وظهرت المزيد من الأعراض.

وفي قرار نابع من أزمته النفسية قرّر أن يتوجه إلى الله، ويواظب على الصلاة اليومية، وهي العبادة التي لم يعرفها في ذروة شبابه، ولم يقترب منها في يوم ما، إذ لم يترك نوعا من المسكرات في الكرة الأرضية إلا وقارعها وتعاطى معها، ولم يترك سلوكا شائنا إلا ومارسه، فصار ـ بعد تلك الحياة العابثة ـ صائما مصلِّيا، يقضي الساعات تلو الساعات في المسجد، ولكن الطريقة تمت بصورة فجة، فالملابس ـ بموجب هذه الأزمة ـ باتت رثّة وهو الذي كان مضرب المثل في الأناقة والجمال، وإذا ما حدثه أحدهم عن هذا الوضع قال له بالحرف الواحد :"إن الحاسدين يقومون بسرقة ثيابي والعبث بها"، وإذا ما طال النقاش كان ردّه جاهزا:"أنت ما تعرف ولا تدري بالسحر وأفعاله".

ومن أجل إنهاء السحر الذي يزعم أنه قد تمكّن من جسده وروحه، لم يتوجه لقراءة القرآن، أو حتى التوجه إلى بعض علماء الدين ممن يعرفون بعض الأذكار التي تنقذ الناس ـ بإذن الله ـ من السحر بل صار مواظبا على اقتناء الأحجار الكريمة، والخواتيم والمحابس والأحجية، وبعض اللفائف التي يوزعها بعض المشعوذين، التي يعتقد أنها سوف تخلّصه من السحر، وسوف يعود إلى وضعه الطبيعي السابق، ويزاول دوره في الحياة كما كان، وينشىء عائلة غير العائلة التي بات يراها جافية له عاقه له، لم تقدِّر ما قدّمه لها من خدمات، فلولاه لما عاشوا في هذا الخير الذي هم فيه.

وبذلك صار كتلة من المعاناة، ومجموعة أحقاد، وجسدا لابسا مجموعة محابس تعبت منها أصابعه، والرائحة التي تصدر منه نتنة، يهرب منها كل من يقرب منه، وبسبب مرض السكر

داخلي INTERNAL

الذي لم يتعامل معه بشكل موضوعي مثله مثل غيره من الناس، بدأت الأعراض الأولية فكثرة العطش جعلته غير قادر على الصيام، فالعبادة التي لجأ لها لتخلصه من السحر بات غير قادر عليها، فخلال شهر رمضان المبارك يضطر تحت وطأة ضغط مرض السكر لأن يشرب الماء في النهار، وإرادته لا تساعده على البقاء صائما حتى غروب الشمس، وأعضاؤه بدأت غير قادرة على تحمله، فلا يمشي إلا بصعوبة، أما عيناه فكانتا أولى ضحايا مرض السكر فتضاءل نورهما، وحينما حاول معه أحد أصدقائه لأن يذهب إلى المستشفى لينقذ ما تبقى من نور بصره رفض وقال :"إن عيني سوف تعود لي إذا انتهى السحر الذي احتل جسدي"، وكانت النتيجة هي غياب نور البصر نهائيا، فصار أعمى يعتمد على عكازة يتوكأ عليها ويتحسس بها الدرب ليصل إلى الأماكن التي يريدها. كل ذلك رغم أن أمواله التي في البنك كفيلة بعلاجه وإصلاح أوضاعه لكنه

داخلي INTERNAL

ارتأى ـ بمرضه النفسي ـ أن يعيش ذليلا حقيرا، وحتى أولاده قد ابدوا استعدادهم لمساعدته لكنه اقتنع بأن ثمة حاسدا قد حسده.

لقد تفاقمت أوضاعه الصحية، ونقل ـ رغما عنه ـ إلى المستشفى وهناك لم يطل بقاؤه، ولم تطل مدته حتى فارقت روحه الدنيا، وهو يعتقد جازما بأن هناك شخصا قد وضع إليه سما وكان آخر ما كان يقوله :"حسبي الله ونعم الوكيل، لقد قتلوني ووضعوا السم لي".

لقد انتهت قصة عبود المجنون، وبقى سعدون الحائر يتأمل في تفاصيل القصة، وفي لحظة من الهم والحزن رفع يده ولطم جبهته، قائلا :" ويلاه لقد كدت أن اخطيء خطأ عبود المجنون، وأدخل في متاهة الشك والظن في الناس، فأكرههم ويكرهونني، والقي باللائمة عليهم وأحملهم

مسؤولية أخطائي.. أعوذ بالله لا حول ولا قوة إلا بالله..

قصة عبود المجنون كانت موجودة وحاضرة ضمن أوراق سعدون الحائر، وقد قرأ تفاصيل عدة كان قد كتبها خلال تحكم هواية الكتابة منه، وسيطرتها عليه، فكانت بمثابة نقل معاناته الشخصية ومقارنتها بمعاناة الآخرين، وأخذ العبرة من حياتهم.. وحينما أعاد قراءة قصة هذا المجنون، توقف مليا، وقال:"إن الحب دواء لكل داء، والحقد والكراهية هي سبب لكل بلاء في هذه الحياة، فلماذا لا نعالج مشاكلنا بالحب، ولا نرفع أذواقنا بالحب الذي هو الدين نفسه، فهل الدين إلا الحب".

فقرأ قصة كتبها، أعادت له توازنه النفسي، فكانت الكتابة دواء له من داء، ومنقذا له من مأزق كاد أن يهوى فيه.

– 7 –

حينما كان سعدون الحائر صغيرا، لما تنفتح عيناه على الحياة، كانت الأمنيات تحركه، والآمال توجهه كي يصبح شيئا في هذه الحياة، ورغم حداثة سنه، وحيرته الدائمة، إلا أن بعض الأمنيات التي كان يحملها اتسمت بشيء من الغرابة، وربما غير الموضوعية، في وقت ما من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للبلاد.

ففي وقت من الأوقات تمنى أن يكون خبّازا مثل عباس الخباز، وجعفر الخباز، أو عيسى القطري، يجلس قرب تنور النار، ويقحم يديه بكل جرأة ويلصق العجين على جزء من جدار التنور المعبأ بالأخشاب التي يتم جلبها من بقايا النخيل التالف، أو النخيل الساقط، أو من باقي مخلفات النخيل أوقات نظافتها وتجهيزها.. لقد أعجبته طريقة الخبّازين في إعداد الخبز، فهي طريقة تقليدية، يتم

خلالها شوي العجين المعد للخبز ليمنحنا رغيفا أو عدة أرغفة ذات طعم ورائحة مميزين، إذ يتم إعداد العجين أولا، يتم خلط العجين مع الماء والخميرة والسكر والملح، ويتم عجن الخليط يدويا، قبل دخول الآلات المتخصصة في عجن الطحين حيث يتم إعداد العجينة في طست كبير.

وكانت تعجبه حركة إعداد الرغيف قبل أن يعانق جدار التنور، والاكتواء بناره اللاهبة، ولم يكن يتوقف عن تقليد الخبازين على الأوراق والملابس، ويتذكر الخباز بعد أن يأخذ قطعة العجين ويقوم بجعلها مدوّرة مثل الكرة ثم يضغط عليها لتصبح مثل قطعة الكعك و البسكويت، ثم يعمل آلة إعداد الخبز(المحوار)على تلك القطعة من العجين، ويحركه من الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، حتى إذا تمدّدت قطعة العجين كتمدد قطع المطاط، يقوم الخبّاز بزيادة التوسعة والتمديد للقطعة عن طريق تقليبها بين اليدين، ثم يضعها على قطعة أسفنجية بيضاء اللون يتم من خلالها

مساعدة الخبّاز كي يلتصق العجين على جدار التنور، ثم يقوم بسحب الرغيف الناضج، أما بمنقاش صغير مخصص لهذا الغرض، أو سحب الرغيف باليد اعتماد على قطعة تشبه أداة التقشير التي تستخدم حين دهان المنازل.

وفي هذا الشأن كان الحائر يذهب إلى الخبّاز يقف ويتفرج على كيفية إعداد الخبز، ومن ثم المقارنة بين عيسى القطري وجعفر الخباز، وبين عباس الخباز وابن أخيه على بن احمد الخباز، وبينهما وبين محمد آل قيس، وأحيانا يقوم بشراء رغيف ويأكله لوحدة دون جبن أو مربى أو بيض او أي شيء آخر، وفي الوقت نفسه يقوم بالتفرج على آلية إعداد الرغيف، والأدوات المطلوبة في العملية، والتي تتألف من (محوار، طاسة صغيرة للدهن ولمساعدة الخباز كي يحرك المحوار، مع طاولة معدة لهذا الغرض، وتنور يتم بناؤه من الطين والجص المحلي)، تبقى مهارة الخلط

والعجن التي لا يتقنها أي أحد وإنما تعتمد على خبرة اتقان الخلطة وإعدادها بشكل جيد.

وكان يعجبه أن يأكل رغيفا من الخبز الأحمر أو الأصفر، او ما يطلق عليه "خبز متين"، وهو يختلف عن الخبز الابيض من نواحي عديدة، فالأحمر أو الأصفر يختلف من ناحية اللون عن الأبيض وذلك نتيجة دمج الطحين الأبيض مع كمية من الطحين غير المكرر (النخالة)، ويدهن بعد تجهيزه بالبيض، وكان في وقت سابق يدهن بالدبس، قبل أن يعانق جدار التنور، وبالطبع هناك أحجام للخبز الأصفر أشهرها ما يطلق عليه خبز مريم، اذ يتم توزيعه بمناسبة وفاة السيدة مريم العذراء (أم سيدنا المسيح عليه السلام)، إشارة الى أن النساء في مجتمعنا يوزعن هذا النوع من الخبز في الذكرى السنوية لرحيل السيدة مريم عليها السلام.. ويختلف الخبز المتين عن الأبيض من ناحية الوزن، فرغيف واحد من الخبز المتين يعادل خمسة أو عشرة من الخبز الأبيض،

وينعكس ذلك على قيمته فالأحمر بريال واحد، بينما لا يقل سعر الأبيض عن 5 أرغفة بريال واحد، وفي وقت ما كان الريال الواحد يكفي لعشرة أرغفة.

وقد لفت نظر الحائر حجم المنافسة بين الخبّازين ، وتبادل الإشاعات فيما بينهم، لدرجة أن بعضهم لا يبيع شخصا كان زبونا لدى خبّاز آخر، وقد أشاع أحدهم عن عيسى القطري بأن تنوره قد استقبل قطا هوى إلى التنور، وذلك بغرض منع الزبائن عن الإقبال عليه، وقد نجحت الإشاعة بشكل جنوني، وفقد القطري بعض زبائنه، الذين اتجهوا نحو خبآزين مختلفين،

وقد أثار الحائر سؤالا حول هذه القضية، مع حميد القطري (ابن عم الخبّاز عيسى القطري) عن سر القط الذي هوى في تنور عيسى القطري :

- لا شك إن خبز عيسى القطري لا يعلى عليه

ـ صحيح هذا القول، فهو في المرتبة الأولى من بين الخبازين

ـ لكن

ـ لكن أنت تريد الحديث عن قصة القط الذي هوى إلى تنور العم عيسى القطري

ـ نعم، وأتمنى أن تكون الإجابة سهلة وواضحة.

ـ القصة وما فيها أن قطا اسود اللون، نزل من أعلى قلعة تاروت المعروفة، وجاء مسرعا، ولا يعلم أين يريد، ربما كان أحدهم يطارده، وتوجه بصورة غير متوقعة نحو التنور لينزل فيه، لقد نزل في أتون النار، ليحترق ويذوب جلده وعظمه والشعر الذي يغطيه، فما كان من العم عيسى القطري، إلا أن اقفل المحل، وتوقف عن العمل مدة من الزمن، إذ طلب من أحدهم تنورا جديدا، ففعل ذلك، وعاد إلى جهده ونشاطه، عدا أن القصة بقيت مشتعلة حتى بعد وفاة القطري، الذي يعده المعنيون بأنه أفضل من قدم الخبز بنوعيه الأبيض

والأصفر وكان بعض منافسيه يزيد في ترويج القصة التي تمت معالجتها بشكل جذري، فالقط ذاب في النار ولم يعد له وجود، والتنور تم تبديله بالكامل، عدا أن العم القطري بقي أسيرا لهذا الموقف لسنوات طويلة، فما ذكر العم وخبزه إلا وذكرت قصة السنور.

ـ تلك هي القصة إذن؟

ـ هذه هي القصة بلا زيادة ولا نقصان، لكن الغريب في هذا القط الأسود، الذي نزل من القلعة سريعا، تخطى كل شيء ولم يقصد إلا التنور، فكانت نهايته فيه.

ـ ربما توقف عن طاعة الله

ـ ربما، وكل شيء جائز.

كانت هناك مغريات محفزة له لكي يصبح خبازا ماهرا، لعل أهمها توفير الطعام للناس، فالكل يريد

أن يأكل كي يعيش، فتكون له مكانة اجتماعية بين الناس، خاصة وأن فترة العمل أكثر من رائعة تتمثل في الصباح الباكر حتى الساعات الأولى من الضحى، ثم الفترة الثانية، هي الفترة المسائية، التي تبدأ من الثانية أو الثالثة ظهرا لينتهي عند آذان المغرب، وما عدا ذلك فالبرنامج مفتوح لمزاولة العديد من الهوايات والجولات والانتقالات، لكن الذي كان لافتا لنظره هو أن هذا الخباز يدخل يده في أتون النار، ليخرج الرغيف الحار، فإذا كنا نحن لا نستطيع أن نلمس القرص وهو حار، فضلا عن أكله، فكيف به وهو يدخل إحدى يديه في التنور الأرضي، ويجلس بجواره، يستنشق هواءه ودخانه، وبين فترة وأخرى يرمي بقطعة خشبية أو يقوم بتنظيفه وهو مشتغل بقطعة قماش (خيش) مبللة.. لا شك أن تلك قدرات مميزة ليست بمقدور أي أحد أن يقوم بها، هذا عدا عملية العجن التي هي الكفاءة بعينها. وقد زاد الاهتمام بالخبازين لأن الاعتماد على الخبز صار سلوكا

يوميا في الصباح لوجبة الفطور، وفي الليل لوجبة العشاء، وقد تخلّت معظم العوائل عن الأرز والسمك واللحم والدجاج في الليل، مما زاد نصيب الخبازين، وأهميتهم في حياة الناس، خاصة قبل ظهور المخابز الآلية، التي هي أكثر إنتاجية وأكثر تنوعا في المنتجات، مقابل اقتصار مخابزنا التقليدية على اثنين من منتجات الطحين.

لقد كان الحائر يتمنى أن يكون خابزا يقدم للناس طعامهم، خصوصا في شهر رمضان، إذ يزداد الطلب على الخبز بصورة غير طبيعية، بحكم أن الكثير من العوائل تميل إلى الاعتماد على الخبز في العديد من وجباتها الرمضانية، وأبرزها "الثريد" الذي هو وجبة رمضان الرئيسية في وقت ما، إذ يتم جمع الخبز مع ماء اللحم (المرق) فيكون وجبة غذائية تؤكل على الفطور في الشهر الفضيل.

داخلي INTERNAL

هذا الأمل لم يحصل، ولم يتحقق لسبب بسيط أن الحائر غير وجهة نظره، وصار يأمل أن يصير أستاذا في البناء، يشرف على العديد من العمال، ويقوم ببناء المنازل مثله مثل الحاج حبيب القمارة، وأخيه عبد المحسن، وعبد الله عاشور، وحسن العرادي، وغيرهم، فالسوق كبيرة، والعمل متيسر، والبناء مهارة تتطلب المزيد من الفهم والنشاط والقوة والإبداع.. لقد نمت في ذاته الرغبة في أن يكون أستاذا بنّاء، وهو يرى أن الأستاذ ذو شعبية، الكل يطلب رضاه، ويتمنى أن يتعطف عليه بنظرة، أو زيارة إلى المنزل، والقيام بعملية إشراف، فضلا عن الأموال العائدة من هذا العمل. فالأستاذ يتحرك وهو أشبه بقائد كتيبة، يسير بإمرته عدد من العمال المهرة، والأقل مهارة، ويحدث أن الأستاذ يدير شبكة كاملة من العمال، تضم واحدا أو أكثر من الأساتذة المساعدين له، فضلا عن العشرات من العمال المهرة، لكن من يصل لأن يصبح أستاذا لا بد له أن يصبح عاملا

لعدد غير محدود من السنوات، أي أن المعرفة بأصول البناء تتم من الصفر، من عامل يحمل الرمل والجص والإسمنت والماء والحجر، وما تتطلبه المهنة، من هدم وتنظيف وما شابه ذلك، فكل الأساتذة لم يصبحوا كذلك إلا بعد أن عملوا تحت إدارة من هو أكبر منهم، وما وصلوا إلى ما هم عليه إلا بعد جهد وتعب ومعاناة، وربما إهانة وضرب.

وقد التحق الحائر في بعض فترات حياته مع بعض الأساتذة للعمل في البناء، ولاحظ الكثير من الجهد الذي يبذل في بناء المنازل، ولاحظ أيضا حجم الإبداع والعطاء والمهارة التي تتطلبها هذه المهنة، التي لا تستقبل ضعيفا، ولا غبيا، ولا عابثا، إنها أشبه بالجيش والتدريب العسكري، تبدأ بعطاء متواصل من الصباح الباكر، وحتى وقت أذان الظهر، يستمر العمل في الفترة الثانية من الثالثة ظهرا وحتى الخامسة، إنها عملية مستمرة لثمان

ساعات يوميا، تتخللها ساعة للفطور في التاسعة صباحا، يقدمه صاحب المنزل، فضلا عن راحة الغذاء، والتي يعود فيها العامل إلى منزله، إذا كان قريبا أو تتم عملية الغذاء في المنزل المراد بناؤه أو ترميمه ويقوم صاحبه بتوفير هذه الوجبة.

وذات مرة جلس الحائر مع احد أساتذة البناء في تاروت ممن ذاع صيتهم في هذا المجال وهو عبدالله عاشور (ابوكريم) وسأله عن سبب اختياره لهذه المهنة فقال:

ـ اخترت المهنة لأن الحياة مرة، بعد أن عملت في العديد من المهن.

فرد الحائر:

ـ وهل أخذتها بمفردك أم تعلمت على يد آخرين.

ـ الوالد (يرحمه الله) كان بناء، ولكن عمله محدود، وأنا تعلمت على يد الحاج (ابوعيسى بن داوود) أنا وجملة من أساتذة البناء الموجودين في

داخلي INTERNAL

تاروت، وكان هذا الرجل لطيفا يتعامل معنا مثل أبنائه أو أكثر، وقد علّمنا كل شيء في البناء.

ـ وهل العمال بمستوى واحد

ـ لا، هناك عامل يتقن العمل في سنة، أو ثلاث سنوات، وهناك من لا يتقن العمل حتى في عشر سنوات، كما أن بعض العمال نجده ماهرا في أعداد الحجر لإقامة الأعمدة، التي كنا نعتمد عليها بدلا من الخرسانة، وبعضهم ممن يقرأون ويكتبون نعتمد عليهم في المقاسات، مثل قص الحديد أو الخشب حسب المقاس المطلوب، وهناك عمال معنا برعوا في عملهم وصاروا أساتذة مساعدين.

ـــ أنت كيف وصلت إلى رتبة أستاذ؟

ـ لقد عملت في كل أنشطة البناء، فلم اترك شيئا، من الحفر والهدم، إلى الخلط والصب، والحدادة والنجارة، وصف الطابوق، وإقامة الأعمدة، وكل ذلك بتوفيق الله، إلى أن قررت أن استقل بنفسي

وصرت ابني المنازل من أساساتها إلى أسقفها، ورغم أننا لم نذهب إلى المدارس إلا أننا نستطيع قراءة الخرائط وتنفيذها وفق المطلوب وبصورة لا تجد فيها أي خلل، بل ونعطي المهندسين بعض الملاحظات.

ـ وكيف يتم الحصول على الرواتب؟

ـ الرواتب في الزمن الماضي، وقبل أن تدخل شركات المقاولات، والتي تعتمد على العمالة الوافدة، تتم باليومية، أي بالأجر اليومي، الذي يقدره الأستاذ، ويدفعه صاحب المنزل عن طيب خاطر، وبدون نقاش أيضا.. فالعمال مراتب، هناك عامل يستحق 60 ريالا في اليوم، وهناك عامل يستحق 100 ريال، وهناك عامل لايستحق الا "كف" على وجهه.

ـ وكيف وضع الأساتذة المعاونين؟

داخلي INTERNAL

ـ الأستاذ المساعد (المعاون) يعطي أجرا يوميا، اقل من أجر الأستاذ الأول، وأكثر من أجر العمال البقية، لأنه يقوم بدور الأستاذ في حال غيابه، فهو يشرف على العمل في حال غياب الأستاذ، ويقوم بمهامه بالكامل، فهو أستاذ مؤهل للاستقلال والعمل بمفرده

هنا قرّر الحائر أن ينقل الحديث باتجاه آخر ليسأله عن تطور البناء في البلاد، فقال:

ـ هل عملت في الجص والحصى، ثم ابتدأت بالاسمنت؟

ـ نعم عملت في الجص، وقمت بعمل زخرفة ما يطلق عليه بـ "نقش البيدانة"، وكانت هناك عمالة متخصصة لحرق الجص، وإعداده للبناء، ولكن هذا العمل انتهى مع دخول الاسمنت.

ـ وماذا بعد الاسمنت؟

داخلي INTERNAL

ــ حتى العمل بالاسمنت كان في البداية يعتمد على الحصى الذي يستخرج من البحر، ويتم تكسيره فتبنى الجدران من الحصى بالكامل، بعد ذلك تم الاستغناء عن الحصى بالطابوق، ولم يعد استعمال الحصى إلا في الأعمدة، بعد ذلك صارت الأعمدة تبنى بالخرسانة مع الحديد.

ـ واليوم كيف وضع البناء؟

ــ البناء بات مهنة منقرضة بالنسبة لشباب البلاد، ولا يعمل فيه سوى العمال الأجانب، ولا أحد من الشباب قد اتجه لهذا العمل، ومن يرغب في هذا العمال يصبح مقاولا يعتمد على العمالة الوافدة في كل شيء، لذلك مرت على البلاد من العام 1985 موجه لا يوجد فيها عامل سعودي يستطيع أن يخلط خلطة اسمنت بالرمل.

ـ وهل العمالة الأجنبية على مستوى منخفض؟

ـ في البداية كانوا كذلك، حينما دخل العمال اليمنيون، كانوا يعملون بكل جهد، لكن الجودة

متواضعة، لكن الأمر تطور، وصاروا يعملون بشكل أفضلِ، لوجود مقاولين يشرفون عليهم، أما الآن فصاروا هم المقاولين، والعمل في الوقت نفسه، وهذه نهاية نشاط البناء في بلادنا، فكل ما نأكله منهم، وما نلبسه منهم، وهم الآن الذين يبنون منازلنا ودور سكنانا.

توقف سعدون الحائر ولم يعد يطمح لأن يصبح أستاذا للبناء، لأن المسألة ما عادت مجدية من الناحية المادية، فضلا عن أن نشاط البناء قد تراجع وصار نشاطا مؤسسيا تقوم به المؤسسات، وتلعب رؤوس الأموال دورها في العملية، ومن يرغب في العمل في هذا المجال فسوف يتعب جسديا دون مقابل مادي، لذلك باتت المهنة محصورة في العمالة الآسيوية، من هنود وباكستانيين وفليبينيين وغيرهم، وإذا كانت في فترة ما مهنة العمل في البناء هي خيار الطلبة في الصيف وفي الإجازات الأسبوعية فإن الطلبة في

الوقت الحاضر باتوا أسارى البطالة المؤقتة التي يتم القضاء عليها بالسهر ليلا والنوم نهارا، وبذلك ما عاد الحائر يتطلع لأن يصبح أستاذا في البناء، فصار أمله في هذا النشاط الإبداعي مضروبا، صحيح أنه نشاط متعدد المجالات، يتطلب مهارات مختلفة، وربما كان صعبا على العديد من الشباب لكنه لم يشأ أن يدخل هذا المضمار الذي انتعش في الطفرة النفطية وانتهى بانتهائها.

وبقى الحائر حائرا أو أسير الآمال والتطلعات، ماذا يريد أن يصير، فتارة كان يعجبه أن يكون نجارا، إذ لاحظ بعض النجارين كيف يقومون بصياغة الأبواب وبعضهم من أبناء البلاد، والبعض الآخر من العمالة الوافدة، وتارة أخرى كان يعجبه أن يصبح حدادا، وهو يسمع نغمات الطرق على الحديد بعد أن يوضع في أتون نار حامية، حتى يحمّر فيلين ويمكن صياغته وفق المطلوب.

وذات مرة سأله والده عن طموحه وتطلعه للمستقبل فقال :"أريد أن أصبح محققا في الشرطة"، وكان معجبا بالممثل صلاح قابيل وهو يقوم بالتحقيق مع المجرمين في مسلسلات وأفلام عديدة أبرزها مسلسل (أصابع بدون بصمات)، فتعجب الوالد من هذا الطموح متسائلا:

ـ محقق في الشرطة؟!

ـ نعم كي أحارب المجرمين، وأحقق العدالة

ـ عدالة! أي عدالة، الله يأخذك ولا تلتحق بهذه المهنة غير الشريفة

ـ مهنة غير شريفة .. كيف؟

ـ الله حرّمها في القرآن ، اما قرأت آي :" ولا تجسسوا..........."

هنا سكت الحائر وهو لم يفهم شيئا، لأنه لم يستوعب أن المحقق في الشرطة هو جاسوس على

الناس، يكشف أسرارهم، ويخترق بيوتهم، ويسلط الضوء على بعض أنشطتهم المشبوهة.. هنا سأل الحائر والده:

ـ وأين اعمل إذا أنهيت دراستي

ـ اترك عنك هذه الأعمال التي تسمع عنها، وعليك بالاكتتاب في ارامكو

ـ ارامكو؟!

ـ ارامكو ياولدي فيها الخير والبركة، من يعمل بها يصبح قويا وغنيا.

هنا دارت في مخيلة سعدون مقولة القوي والغني، إذ يبدو أن الوالد فهم سيكولوجية ابنه الباحث عن القوة، فأرشده على طريق يحقق له القوة في البدن، فضلا عن معرفة الوالد بما يحدثه العمل في هذه الشركة.

وهكذا بين الآمال والحقائق، تطل حيرة سعدون الحائر، منذ نعومة أظفاره، ماذا يريد أن يصبح؟

وماذا يريد أن يصير؟ وما هو القرار؟ وماهي صورة المستقبل؟ لقد بقي حائرا إلا أن الملجأ الوحيد الذي يصب فيه حيرته هي فكرة الأستاذ احمد عوّاد وهي الكتابة، لذلك قرر أن يؤلف كتابا عن المهن المنقرضة، ابتدأها بالخبازة، والندافة ، والخياطة، والبناء، والنجارة، والحدادة، والصناعات اليدوية الصغيرة، وما نتج عن ذلك البحث هو المزيد من الحيرة لديه، بل وزيادتها، فكان خياره هو المزيد من الكتابة، مرددا قول الشاعر:"كل الدروب أمامنا مسدودة.. وخلاصنا في الرسم بالكلمات"، ولم يفته أن يكتب حكايته مع المهن التي أراد أن يزاولها، وهو يريد أن يصبح خبازا، أو بناء، أو نجارا، أو محققا في الشرطة، ومن شدة حيرته قال له صديقه سعد الذي لا يفتأ أن يسخر منه ومن توجهاته اليومية:"أنت ياحائر تصلح بناء للقبور، أو كاتب وصايا، أو نجار توابيت، لا أكثر ولا أقل".

هذه المواقف والأمنيات خطّها سعدون الحائر ضمن مجموعة أوراق جهّزها من كيس اسمنت، وجدها ضمن صندوق تراثه المليء بالغبار وراح يردد:" لا بناء، ولا نجار، ولا حداد، ولا حتى زبال"، إنما "حائر وحيران"، هنا قفز إلى ذهنه مسلسل كويتي إذاعي من بطولة الممثل الكويتي المتألق عبد الحسين عبد الرضا حيث تقول أنشودة المسلسل وهي على شكل حوار غنائي بين صوت نسائي وصوب عبدالحسين عبدالرضا تقول الانشودة:

ـ علامك يا حيران (الصوت النسائي يقول)

ـ من زمان آنا حيران (عبدالرضا يرد)

ـ حيران! (الصوت النسائي يعيد)

ـ والنار بيوفي (عبد الرضا يرد)

ـ حيران ! (الصوت النسائي يعيد)

ـ من الله خوفي (عبد الرضا يرد)

لقد خط الحائر قصة حياته المهنية، ولا زال يبحث عن ملجأ لحيرته، وكلما كتب زادت حيرته، وزادت همومه .

— 8 —

كانت حياة سعدون الحائر مليئة بالجدالات العقيمة والمفيدة، يناقش كل شيء،يعترض على كل شيء، لا يعجبه العجب ولا الصوم في رجب، يختلف مع كل شيء ومع كل أحد، وإذا لم يجد ما يختلف حوله اختلف مع ذاته وانتقدها، وكلما دخل حلقة نقاش وانهزم فيها ولا يستطيع الرد أو الانتقام لذاته يعود إلى أوراقه ويخط جلسة النقاش ليبرز نفسه بصورة البطل المنتصر أو يقوم بشيء من التنفيس عن ذاته المكتئبة، ومع ذلك فهو لا يمانع لأي أحد أن يناقشه حتى في أشد خصوصياته، وهو على استعداد تام لأن يبحث أمرا خاصا به على الملأ وقاعدته في ذلك :" إذا خفت من شيء فقع فيه"، و"الكلمة التي تستحي منها تفوّه بها".

وكل جلسة حوار يدخلها، يقوم بتسجيلها في أوراقه، لكنه بعد الانتهاء منها لا يتورع عن القيام

بإتلافها، بالدفن أو الحرق، أو الرمي في سلة المهملات، وإذا ما أراد الاحتفاظ بشيء من هذه الجدالات وضعها بأسماء مستعارة لمبررات لا أحد يعرف حقيقتها غيره، وينطلق في ذلك من أن الكثير من الأدباء يكتبون سيرهم الذاتية ويعرضونها بأسماء مختلفة.

ومن ابرز الحوار التي سجلها وكان "صندوق" الأوراق المتناثرة قد حواها ما أطلق عليه الحائر بـ "حوار الكرامة"، ذلك الحوار الذي جعله يكتئب لمدة أسبوع، لم يتخلص منه إلا بعد أن كتبه على الورق، فـ "سعد" صديقه وكاتم أسراره، وأخوه الذي لم تنجبه أمه، جاءه ذات يوم غاضبا، يتطاير الشرر من عينيه، وقد تحامل على الحائر ووصفه بصفات لا تليق به.

يقول الحائر عن ذلك الموقف:

جاءني صديقي سعد وكان في حالة من الغضب، وبدون مقدمات قال لي :"أنت إنسان حقير، وبلا كرامة، بل أنك شخص منحط وسافل"، فما كان مني إلا أن لذت بالصمت للحظات وأمسكت جياش غضبي، وبادرته :

ـ وصفتني بالحقارة والانحطاط، وقلت عني إني إنسان بلا كرامة، فما أدري هل هذا مديح، أم هو الشتم بعينه؟

فرد سعد:

ـ أليس ما أقوله هو الحق؟

ـ لو افترضنا أن كلامك صحيح، فهل من الأسلوب السليم، أن تهبّ علي بهذه الطريقة المتسرعة، وتقوم بإهانتي في نفسي، واستصغاري، لماذا لا تحاول أن تكون راقيا في الحديث؟

ـ أكون راقيا إذا كان الطرف الآخر راقيا، أما إذا كان منحطا حقيرا، فلا تصلح معه غير لغة تتناسب مع مقامه.

ـ حتى هذه اللحظة لم أسمع منك إلا الشتائم والإهانات، ولا أدري هل أنت صديقي أم عدوي؟ هل تريد مصلحتي أم تتطلع لشيء آخر؟

ـ هذه مشكلتك، كل من يناقشك، تعتبره عدوا لك، ويريد أهانتك، وهذا دليل على أنك حقير!

ـ سوف أغض الطرف عن سيل شتائمك، وأسلوبك العنيف، وسأكون إيجابيا معك، أتمنى أن نبتعد ـ نحن الاثنين ـ عن الانفعال، وتقدم لي نصائحك، وملاحظاتك، وسوف أكون كلي آذانا صاغية.

حينها شعرت بأن "سعدا" قد هدأ وسيل الانفعالات قد توقف، فكان أول شيء أردت أن أعرفه هو

سبب هذه الانفعال وشدته، فلا أتذكر إني أسأت إليه فبادرته بالسؤال:

ـ يا أخي لو أن أحدا غيرك أطلق عليّ هذه الألفاظ لكان لي رد آخر، أقلها أن أغلق الموضوع، واسكّر باب الحديث من الأصل

ـ أشكرك على هذا الشعور، وأنا من باب الحرص، وتمجيدا للصداقة والعشرة أقول لك هذا القول، ويؤسفني أن أصفك بكل هذه الصفات.

ـ وأنا أشكرك أيضا، وأتمنى منك الدخول في الموضوع مباشرة، بدلا من كلام الشعارات والكلام بدون دليل، فضلا عن هذا الشتم والسب الذي لم أعرف مناسبته حتى هذه اللحظة.

ـ سوف أتحدث عن بعض الشواهد التي تدل على سوء أخلاقك، وأتمنى ألا تقاطعني .

ـ صرتُ بدون أخلاق بعد! ومع ذلك تفضل

ـ أتمنى عدم المقاطعة.

ـ لن أقاطعك

هنا واصل سعد الهجوم الناري على صديقه المقرب منه وهو أنا، وقال:"أنت حقير ونذل وحمار أيضا"، وسوف أقدّم لك الأدلة التي أراها، أما أنك حقير فذلك لأنك تقبل لنفسك المذلة، اتذكر ذلك الإنسان الذي اخطأ عليك وشتمك لكنك سكت ولذت بالصمت ولم ترد عليه، فهذه ليست طيبة، وإنما هي حقارة وانحطاط، والتواضع صفة مغلوطة لديك، وكما يبدو أنت لا تستطيع الرد على الإهانات لأنك "حمار" تضرَب وتضرَب وأنت ساكت بل وأنت راض.

ويمضى سعد في هجومه الناري، بينما أنا قد أنكست رأسي خجلا وتقبلا لما يقوله صديقي العزيز:

"أنت ياسعدون، تستحق كل الذي يجري عليك، لأنك قبلت لنفسك المذلة، والمرء حيث وضع

نفسه، فما دمت قبلت أن تكون "حمارا"، فعليك أن تتحمل الضرب والإهانة، ولم تكن تفكر في يوم من الأيّام أن تصبح "ذئبا"، أو "أسدا" أو "نمرا"، ذا أنياب يستطيع الدفاع عن نفسه ويرد الإهانات والاعتداءات، فما أدري هل نفسك ترضى بهذا الوضع، أم هو عجز وضعف، وأنا أميل إلى أنك غير راض بذلك، لكنك ضعيف، ضعيف في شخصك وإرادتك، فلا تستطيع رد الحصى من حيث أتى، وبذلك لا تملك القدرة على التأثير في الآخرين، لأن الآخرين أنفسهم لا يرون فيك بأسا ولا يرون فيك شخصا مؤثرا، يمكن أن تغيّرهم أو تغيّر مجريات حياتهم، لأنك ضعيف أمام نفسك، لا تستطيع أن تغيّرها فكيف تغيّر نفوس الآخرين".

وبينما أنا استمع لسيل الهجوم والشتائم الموجهة لي من قبل صديقي، والحزن والغضب يعتملان في داخلي، في الوقت نفسه وجدتني عاجزا عن الرد فما كان مني إلا أن قلت له:

ـ لقد شتمتني كثيرا اليوم، وهو أمر لم أتعوده منك، وأراك جادا في شتمي ومسبتي، وأنا بهذا الأمر أشكرك على هذا الهجوم، وعلى هذه الملاحظات، لكنك حتى هذه اللحظة لم توضح لي ما هو الحدث أو الموقف الذي دفعك لهذا الغضب، وأنا اقدِّر لك إخلاصك في المحبة لي، والعمل من أجل إصلاحي.

ـ للأسف المواقف كثيرة وعديدة، لا أدري من أين أبدأ ومن أين أقول، عد أن الذي أشعل الصاعق، بل أشعل البركان أن شخصا ولا أريد أن أذكر إسمه وأتمنى ألا تفرض علي أو تضغط علي لأن أورده، تحدث بسوء عنك، وكان جل كلامه "سخرية" على شكلك مرة، وعلى حديثك مرة ثانية، وعلى تصرفاتك مرة ثالثة، وعلى طريقتك في الحياة مرة رابعة.. وكان ختام قوله أن فلانا لا يعدو أن يكون "مسرحية" هزلية أداة للتسلية، وحين سألته عن السبب الذي دفعه لهذا الموقف

مال بالسخرية عليك، ولا أعلم لماذا أنت في وضع يدفع مثل هؤلاء الحثالات للسخرية منك، وأنت أنت، ولا تفسير لي سوى أنك تساهلت في التعامل معه ومع غيره، وتعاطيت في الحياة بنوع من البساطة مع أناس لا يستحقون سوى الضرب بـ "الجزمة" .. لكنك "حمار" وسوف تبقى حمار ما دمت تتعامل مع هؤلاء "الحوش" وبكل أسف أنت مثلهم، والمرء يعرف بقرينه.

ما كان مني إلا أن قلت بغضب:

ـ أرجوك أن تحترم نفسك، وتتحدث بهدوء قليلا، والابتعاد عن الخطأ، فما أظن إنني سيء لهذا الحد، فهل تريدني أن أردّ الإهانات التي توجهها لي وتزعم أنك صديقي بالطريقة التي تتعامل بها، أم ارتقي بالحوار إلى وضع أفضل، وهل تريدني أن أتخلى عن أخلاقياتي وسماتي بين الناس، وهل تريدني أن أكون متجهم الوجه، عبوسا لا أحد يحبه، أو يحب التعامل معه، وهل مجرد سخرية

شخص واحد من هؤلاء "الحوش" حسب وصفك يدفعك لأن تشن هجوما كاسحا عليّ.. ويعلم الله كم أنا متألم من هذا الحديث، ليس لأنه تحدّث عن عيب في نفسي، لكن لهذا الوضع المبهم أو لأن أقرب المقربين منّي لم يعد يفهمني، ولا يعرف ما يجري في داخلي، إنني بحق حزين لدرجة الكآبة

فرد صديقي:

ـ لا لم أقصد أن تتخلى عن أخلاقياتك ولا تتجاوز السمات الإنسانية التي تحملها، ولكن المطلوب أن تتصف بالرزانة والجدية في التعامل مع القضايا الإنسانية، إنك يا أخي العزيز "لاأبالي"، بل يمكن أن أقول لك إنك جبان، وشخصيتك ضعيفة، لذلك أنت "ملطشة" لكل من هبّ ودبّ، وهذا أمر يزعجني، لأنك صديقي، ولا أقبل أن ينال أحد من صديقي كائنا من كان، إنني لا أطلب سوى أن تحترم نفسك قليلا، لا تنزلها في الحديث أو الحوار

او العلاقة مع أشخاص اقل من المستوى، ولا تفهم من هذا الكلام إنني أدعوك لأن تتكبّر وتتعامل مع الناس بفوقية وتعال، وإنما عليك أن تكون محترما في تعاملك.

ـ أرى أنك تمارس شيئا من القسوة والحديث عن احترام الذات، فهل أنت بهذا الدور قد احترمت نفسك؟ وهل احترمتني بهذا الأسلوب الذي لن أصفه بألفاظ شبيهة بألفاظك؟

ـ أراك شخصا لا تحترم نفسك، وفي الوقت نفسه لا تتهم نفسك، أي أنك مغرور، لكنك لا تعرف كيف تتصرف، وتتكلف التواضع والمزاح، من اجل إضافة شهرة وتميز لنفسك، فأنت بذلك أناني وأستطيع أن أقول عنك بأنك شخص لا تحب إلا نفسك.

ـ لا أدري ماذا أقول لك، وماذا أرد عليك، ولا أعلم على أي الأمور أعلّق، وبعيدا عن أي تعليق، فأنا لا أعلم هل أنا بهذا المستوى من السوء،

وصرت الآن مغرورا، ولا أحترم نفسي، ولا أعلم من أين أتيت بجملة التناقضات التي تعبأ بها ذهنك، واعذرني لن أنزل إلى المستوى الذي نزلت إليه، وأبادلك الهجوم، وما دمت حريصا على نصحي فلا أرى من المجدي أن أقدّم إليك نصيحة، بيد إني أتمنى أن تكون ذا تركيز وتقدم لي ملاحظاتك بصورة واضحة.

ـ لا أرى أي فائدة من الملاحظات فلا تزال عنيدا، لكنّي سأكتفي بالقول أنك لا تتمتع باللباقة ولا بالأسلوب الحسن في التعامل مع الناس، فلا التواضع في محله، ولا الغرور في محله.. إنما أنت "كوكتيل" غير متناسق، وخليط معقّد من جملة سلوكيات خاطئة، فأنت "كلّك على بعضك خطأ"!

ـ أنت صديقي، وكاتم أسراري، وعلاقتنا ليست وليدة اللحظة، وأستطيع أن أقول بأنك أعرف

الناس بي، ولكنّك مع هذا أكثر واحد يتحامل عليّ، ولم أعلم ـ حتى هذه اللحظة ـ ما الذي أغضبك منى وأحال ذلك السرور حين نلتقي إلى غضب وحنق وهجوم ناري، لم أشهده منك من قبل

هنا هدأ سعد، وانخفضت حدّة غضبه، وكأنما هي بالونة خرقت وطار هواؤها، وبعد لغة الانفعال ولهجة السب والتحامل من قبل تجاه توأم روحه، وصديق حياته، بدأ بلغة أخرى تسود منطق الحوار بين الصديقين، فقمت بجلب قليل من الماء، وبعض الطعام، وطلبت منه المزيد من الهدوء لنتوصل إلى حل لهذا الموضوع فقد وصفني بكل صفات النذالة والغباء وضعف الشخصية، ولم يتورع بأن يصفني بعدم الضمير، حمار وحقير... لكنه بعد تلك الفورة قال لي:

ـ عزيزي سعدون، سامحني إذا تماديت في شتيمتي وسبابي إليك، ذاك لأني ـ والله العالم ـ

أحبّك أكثر من نفسي، وأغضب لأجلك أكثر مما أغضب لذاتي، وما قلت الذي قلته إلا غصبا عني.

ـ وهل هذا الأمر يحتاج إلى تكرار أو إعادة حديث، فعلاقتنا أقوى من أن تنال، ولن تتأثر بأي كلام هنا، أو صوت هناك، لكنّي لم أزل جاهلا بالحدث الذي أشعل هذا الصاعق، وفجّر القنبلة، ومن يكون هذا الشخص الذي نال منّي، وهل أنا وأنت ملزمان بالرّد على أي شخص ينال من شخوصنا ويتعرض لمواقعنا، ولست ملزما بأن أكون محطة رضا لأحد، وإذا كان ذاك الشخص قد تعرّض لي بالسوء فلا اعتقد إنني مسؤول عن سوء أخلاقه، أو بالأحرى سوء نواياه.

ـ هذا الكلام صحيح، لكن بحسن نية أعطيت مجالا لجملة من "حثالات" المجتمع بالتمادي والتعدّي عليك، وهذا أمر لا يرضيني، ولا يمكن أن أقبل به، وأحب أن أحيطك علما بأنني وقبل أن أجيء

لك، ألجمته حجرا، وطلبت منه ـ وبحسم ـ ألا يتعرّض لك بأي سوء.

ـ على العموم لا أقول إلا :" سامحه الله" وأشكرك شكرا جزيلا على دفاعك عنّي، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على حسن معشرك، وطيب أصلك، لكن الذي ينبغي أن تعرفه هي أنني لست بالصورة الذي تحدث بها عنّي ذلك الشخص، وأظن أنك أعرف الناس بي، واعتقد أن المسألة ذاتية تتعلق بي شخصيا لا دخل لأحد بها، ولكن أنت بحكم أنك صديقي يحق لك أن تنصحني وتشتمني ولست غاضبا على تحاملك، وكما قلت لو أن أحدا غيرك تطرق لهذا الموضوع بهذا السوء لكان لي معه جواب آخر.

ـ أنا آسف على الموقف مرة أخرى، ولكن أزعجني ذلك "السافل المنحط" حينما قال عنك :"مسرحية"!

ـ دعك من كل ذلك، وتعالى نناقش الأمر بيننا بكل هدوء.

ـ وكيف نناقش هذا الأمر؟

ـ أنت تحدثت عن قضية شخصية تخصني، ولأنك صديقي فأنا أتقبل ذلك، وكما سبق القول لا أمانع من الخوض في هذا الأمر، لكنها لا تخص ذلك السافل المنحط، الذي ذكرته، ولم تشأ إيراد اسمه، بالتالي فاسمح لي أوضح لك بعض الأمور ربما كانت غامضة علك، وإن كنت أظن إني كتاب مفتوح أمامك.

ـ تفضل .. تفضل

حينها بدأت بالحديث المفصل، وطلبت منه إلا يقاطعني وقلت:

أنا ـ ياأخي ـ اشعر بالحرية، وأمارس سلوكياتي كما أشاء، المهم إني لم أخالف شرعا ولا قانونا،

ولم أتعرض لأحد من الناس بسوء، وإذا كان ثمة خطأ في الأمر فأستطيع القول بأني أخطأت في حق نفسي، وإذا استصغرني الناس فأني ـ بحول الله وقوته ـ كبير في ذاتي، واثق بنفسي، هذا أولا..وثانيا، هناك اختلاف في وجهات النظر، فالبعض يحبّك لأنك جاد، والبعض الآخر يحبّك لأنك بشوش، وهل صرت ملزما أن أرضي الآخرين، وأمارس السلوكيات التي يريدونها، أو يحبّونها، أم أنا صاحب القرار في كل شيء، بما فيها سلوكياتي الشخصية، وثالثا، واعتقد أنك فاهم كل شيء، ولكن لا يمنع أن أجيب على استفسارك فتقبل النصيحة لا تعني قبول كل ما فيها، فلو كان بيدك جوهرة وقال الناس إنها جوزة ما كان قولهم يضرك شيئا، ولو كان بيدك جوزة وقال الناس إنها جوهرة فهل كان هذا ينفعك شيئا، فهناك فرق بين القبول والتقبّل، فليس كل نصيحة صحيحة، وليس كل مجاملة نفاقا، كما أن العلاقة بين الناصح والمنصوح محدودة بمستوى العلاقة بينهما، لا

تصل إلى درجة الجبر، وإنما هي دعوة للفعل السليم، وهذا الفعل مختلف حوله، فالسليم لديك قد يكون خاطئا لدى غيرك.

هنا التفت لي سعد سائلا:

- يعني أتريد القول لي بأنك مقتنع بكل سلوكياتك وتصرفاتك

فرددت عليه:

- يا أخي لماذا أنت مصر على إني خاطيء، وسلوكياتي خاطئة؟ ولماذا تعتقد إني غير جاد في حياتي، وإن اهتماماتي تافهة، وان شخصيتي ضعيفة؟ رغم أنك تعرف الحقيقة وأرى أنك تأثرت بكلام الآخرين عنّي، وهذا شيء خاطئ ولا أريد أن انفعل بالصورة التي انفعلت بها.

ـ ليس الأمر كما ذهبت، ولكن ضع نفسك موضعي وأن تسمع شخصا تافها يقوم بالسخرية

من صديق عمرك، هل كنت تريدني أن أقبل أو أهدأ أو أضحك؟ إنني اعتقد أن موقفك سوف يكون مثل موقفي، إلا إذا كنت لا أساوي شيئا لديك.

ـ بالطبع سوف يكون موقفي حادا وحاسما، وربما شديد الانفعال، لكن سوف أتفهم موقف صديقي أولا، وموقف ذلك الذي وصفته بـ "السافل المنحط" وأناقشه في ملاحظاته فلربما كانت مفيدة لي ولصديقي.

ـ هذا يعني أنك مستعد للنقاش وربما كانت الملاحظات سليمة؟

ـ ربما كانت سليمة، وربما غير ذلك، فليس كل ما يقال صحيح، كما إنني استطيع أن أغيّر مواقف الآخرين وقناعاتهم بالتي هي أحسن، وكان يفترض منك أن تقنعه بوجهة نظري التي أنت تعرفها.

ـ وما هي وجهة نظرك يـــ " ابو الكلام"؟

ـ أنت تعرف إني شخص أحب الناس، وكما أعتقد أن الناس تحبّني، فليس من السليم أن أكون صلفا قليل الحياء متجهم الوجه، بل ينبغي أن أقدّم البسمة، وهذه هي الأخلاق التي تعلمناها في منازلنا ومدارسنا ومساجدنا.

ـ ولكنك تعرف أن كثرة المزاح تذهب بالمروءة وتقلل من هيبة الرجل، وتسقط شخصيته أمام الناس.

ـ صحيح إذا كان ذلك خارج الزمان والمكان، فليس المزاح سلوكا سليما في كل وقت، وفي كل موقع، فهل من السليم أن يمزح المرء في المقبرة، وفي موضع العبرة والموعظة، وهل المزاح يتم مع من تعرف ومن لا تعرف، بالطبع لا، وهذا ما أزاوله، فلست مزاحا في كل مكان، وفي كل زمان، ولكن لن يأتي يوم وأتحول إلى شخص مريض ينظر إلى الحياة بصورة متجهمة حانقة،

والأمر الهام في هذا الأمر أن سلوكياتي التي تعرفها لم تأت من مرض ولا من أزمة، إنما هي عادة أولا، تحوّلت إلى قناعة، وأظن أن هذا الأمر واضح.

ـ تبقى ياصاحبي عزيزا ولافتا وقادرا على تحوير الكلام، وصدق ذلك الساقط حينما وصفك بـ "المسرحية" لكن من نوع آخر، أرجو إغلاق الموضوع حتى لا أصاب بالصداع من لسانك الحاد

ـ صار لساني حادا، أما لسانك فهو الناعم الوديع.

انتهى اللقاء وتصافحنا وكأن شيئا لم يكن، وقلت له بأن القصة سوف يتم كتابتها في الأوراق .

إنها قدرة فائقة لدى الحائر على قلب الحقائق، واللف والدوران، والعمل على كسب الجولات، لكنها جولات ورقية، أي أنها انتصارات يحققها على الورق فقط، ليس بالضرورة أن يكون قد حققها على الواقع، لأن الأوراق هي الملجأ الوحيد

له، إذا أصيب بأزمة، أو مشكلة لم يستطع حلها، فالأوراق لا تختلف عن الأحلام التي تعبّر عن تطلعات وآمال الواقع.

الحائر يعكس حيرته على أوراقه، فتجده منتصرا، قويا، فكل حواراته مكتوبه، بعض ما كتب بقي في الصندوق، وبعضها تعانق مع المهملات في سلالها، أو تكون في أتون النار، كونها قد أدّت مهمتها وهي التنفيس الذاتي فقط.

داخلي INTERNAL

— 9 —

"إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلّتي، وجلّلني التباعد منك لباس مسكنتي"، ذلك مقطع من أدعية الإمام على بن الحسين السجاد (ع) وقد ورد في الصحيفة السجادية، استمع له سعدون الحائر وراح يتمعن في معانيه، ويعمل ذهنه في الكلمات متسائلا:"هل الأخطاء والمعاصي تلبس الإنسان مذلة؟ وكيف هي المذلة التي يقصدها الإمام؟"

لقد قرأ العبارة مرة ومرتين في لحظة عبث أخرى بين الأوراق المتناثرة، والتي ما أن يمر يوم إلا ويقف على تجربة ذاتيه كتبها، فزاد في البحث ربما كان له موقف مع هذا المقطع، ومع هذا الدعاء بالتحديد، فالعبارة قوية ودقيقة أوردها الإمام المعصوم، والكلام الذي يقوله فوق كلام المخلوقين، ودون كلام الخالق، لذلك فهو يستحق

التمعن والتفكر، والله جل شأنه أمرنا بإعمال الذهن فـ "تفكر ساعة خير من عبادة سنة".

وكعادة الحائر المأزوم، هو أشبه بالمريض ضعيف المناعة كل شي يثير علته، ويحي مشكلته، وليس لدى هذا الحائر سوى أنه لا يدري ما يعمل، وكل شيء لابد وأن يسأل عنه ويفهم كنهه، وكلما فهم شيئا ازداد حيرة وتأزما، فما كان منه إلا أن كرّر العبارة مرة بعد أخرى، فقد تمكنت منه الوساوس والخلجات الذاتية، فصار يحاكي نفسه ويكلّمها بصورة غير طبيعية لدرجة لو رآه أحدهم لاعتبره معتوها، أو مصابا بجنون إدواري زادت عليه علّته، وفي هذه اللحظات تذكر أن حوارا حول هذا الموضوع جرى له مع أحد رجال الدين ممن رحلوا عن دنيانا يدعى الملا حسن تناول هذا الموضوع بالتحديد، وما جالت الفكرة بذهنه، ولا مرت بخاطرة، إلا لأنه كتبها ضمن أوراقه التائهة، في وقت غابر من أزمنته الغابرة، فراحت يداه

تعربدان بين الأوراق، وقام بعملية بحث مركّزة بين كوم الورق المكدس، استغرقت منه ساعة من نهار، وجد تلك الوريقات التي خطّها بثلاثة أحجام من الأوراق، وكانت تتناول هذا الموضوع بعينه، والمتمثل بجلسة الحوار التي بدأها سعدون متسائلا:

ـ ماذا يعني الإمام بقوله:"ألبستني الخطايا ثوب مذلّتي"، فهل للمعصية ذل، وما نراه أن أصحاب المعاصي هو سادة الأرض؟

رد عليه الشيخ حسن ـ كما جاء في الأوراق ـ

ـ للمعصية ذل، وللطاعة عز، و"من أراد عزّا بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته".. كما ورد في الأثر.

ـ وكيف يكون ذلك ـ جناب الشيخ ـ فالأمر غير واضح، بالنسبة لي على الأقل؟

ـ يا أخي إن لكل فعل أثرا، والمعاصي والخطايا ليست فعلا معينا أو سلوكا صدر من صاحبه وانتهى الأمر، إنما هناك تبعات ونتائج قد تظهر من هذا الفعل، فلا يتصور الواحد منا أن تجاوز النصوص الإلهية والقوانين الربّانية مسألة تمر بدون عقوبة دنيوية، سابقة بالفعل للعقوبة الأخروية، إذ لم ينه الخالق عن بعض الأعمال ألا لأن ثمة آثارا دنيوية تظهر على مرتكبها.

ـ عقوبة دنيوية غير العقوبة الأخروية؟!

ـ نعم هناك عقوبات في الدنيا تطال العصاة، والخارجين على قانون شريعة الله، فقد يغرّ الإنسان بالستر المرخى عليه، ويظن أن ارتكاب الخطأ بعيدا عن أعين الناس يتم دون أن تظهر العقوبة، أو الأثر السلبي الناجم عن هذا الفعل، الذي "تذهب لذته وتبقى تبعته"، كما قال الإمام علي (ع).

داخلي INTERNAL

ـ وماذا تعني بالتبعة، وما هو الأثر الناجم عن الخطأ؟

ـ الإجابة قالها الإمام السجاد (ع) :"ألبستني الخطايا ثوب مذلّتي"، هي الذلة والإنكسار والضعف، فالعاصي قد يشعر بالسعادة والارتياح النفسي أثناء قيامه بالمعصية، لكنه لا يعلم أن هذه المعصية أشبه بثوب تلتصق ببدنه ونفسه، تجعله أسير تلك الموبقة، قد لايستطيع الفكاك منها، إذا لم يتخذ قرارا بالتوبة التي هي الخيار الوحيد الذي يعيد للإنسان توازنه وكرامته التي تعبث بها المعاصي والخطايا.

ـ أجد أن كلامك فلسفي، يميل إلى التعقيد نوعا ما، إذ كيف تكون الذلة وليدة الخطأ، وكيف يمكن لأفعال أو تصرفات معينة تلبس صاحبها ثياب الذلّة؟

ـ من المعروف أن الخطأ قد يصدر عمدا، أو سهوا، أو جهلا، أو تحت ظروف معينة، وقد يكون

واحدا، وقد يكون مكررا وعلى خطوات، أو على دفعات، ومن الواضح من كلام الإمام السجاد أن الخطأ الذي يورث صاحبه ذلا هو ذلك الخطأ المكرر، لذلك قال :"الخطايا"، ولم يقل:"الخطأ" أي أنه (عليه السلام) تحدث عنها بصيغة الجمع، بالتالي فليس ارتكاب الخطأ الواحد يورث الذلّة، وإنما الإصرار على الخطأ هو الذي يضع صاحبه في موضع الذلة والانكسار أمام الأهواء والنوزاع، التي تمثل مصدرا لتلك المعاصي، فلولا خضوع الإنسان وذلته لأهوائه لما ارتكب المعاصي والمنكرات، فالخطأ الواحد هو الخطوة الأولى للذلّة، التي يتفاوت مستوى انحدارها بعدد وحجم ونوع الأخطاء الصادرة، هذا أولا.. وثانيا إن ما يقصده الإمام بتلك الخطايا هي التي تجعل صاحبها أسيرا لها، وتسيطر عليه، وتكون جزءا من شخصيته، هنالك تلبسه الذلة والمسكنة والضعف، لذلك كان تعبيره عليه السلام باللباس

والثوب، فالخطأ لا يلبس صاحبه ذلة إلا إذا تكرّر وصار (خطايا)، وصار أيضا جزءا من شخصية صاحبه، هناك يلبس هذا الصاحب ثوب المذلة، فلو أن رجلا شرب الخمر لمرة واحدة ولم يعد لها، ففي هذا الحال هناك خطأ يمكن علاجه، ويمكن التوبة والاستغفار منه، ولكن إذا تكرر هذا الفعل مرة أخرى، وصار صاحب هذا الفعل مدمنا أسيرا لهذا الفعل، وصار صاحبه يقارعه بنوع من الضعف والتحدّي لله، حينها سوف تلبسه هذه المعصية ثوبا من الذل، كونه سيصبح أسيرا لها، وهي صارت جزءا من سلوكياته، ولا يستطيع مفارقتها، فيدخل النفق المظلم، وما أقبح بالمرء أن تكون له رغبة تذلّه، ويجري هذا الأمر على كافة المعاصي والأخطاء.

ـ هل أفهم من ذلك أن مفهوم الذلّة والمسكنة، والعزة والكرامة، تكمن في هذا الأمر الذي تطرّقت إليه شيخنا الفاضل؟

ـ هذا صحيح، ولكن ياحائر اتركني قليلا أكمل الفكرة، فكما أن المعصية تورث صاحبها ذلا، فإن الطاعة تورث صاحبها عزا، فالطاعة ـ بمعناها الشامل ـ في كل شيء فمن يراعي الله في سكناته وحركاته سوف يمنحه جل شأنه عزته، ويلبسه رداء كرامته، بالتالي فالأثر الدنيوي للعمل الصالح (أو غير الصالح) يظهر في محيا صاحبه، كما تظهر في سلوكياته وتصرفاته، مما يكسبه احترام وتقدير الآخرين، ألا ترى نفسك تحب كل من يلتزم بشريعة الله، وتبغض ـ بدون شعور ـ المجرمين العصاة، حتى أولئك الذين يعصون الله بقلوبهم بالحسد والحقد والضغينة، فضلا عن أولئك الذين يعصون الله بجوارحهم بالظلم والتعدي والقتل والزنا وغيرها..إن العزة والكرامة لا تأتي إلا من الإلتزام بالقوانين والأنظمة، بينما المخالفات تعرّض صاحبها للعقوبة والمحاسبة والذلّة، في الدنيا قبل الآخرة، أليست ذلا تلك

السمعة السيئة التي تطال المجرمين، وتلتصق بهم، بينما هي الفخر حينما تظهر سمعة الإنسان بين الناس على انه من الطائعين الملتزمين.

ـ هل من معنى كلامك نجد أن من يكون مصابا بنقص في ذاته كالشعور بالحقارة والدونية، تحل مشكلته بمزيد من الطاعة والعبادة؟

ـ لقد وضعت يدك على حقيقة هامة كنت أريد التطرق لها، وتدخل في صميم الموضوع، هي علاقة الأثر بالفعل، وهي مسألة حساسة يتطرق لها العديد من الأبحاث النفسية، أو تلك التي تتعلق بعلم النفس، إذ أن من الحلول المقترحة لحل مشكلة عقدة الحقارة التي تصيب العديد من بني البشر هي ممارسة العطاء في الحياة الدنيا، وأن يكون هذا العطاء موجها وخالصا لله، حيث يتخطّى الإنسان الحالة الأنانية إلى الحياة الجماعية، حينها سوف يتخلص ـ بإذن الله ـ من العقدة، التي هي شعور عميق بالحقارة، أي بالذلة والضعة، فيكون العمل

الصالح حلا لمشكلة نفسية، فهذا جزاء دنيوي يضاف إلى الجزاء الأخروي يوم القيامة.

ـ معنى ذلك أن الإنسان العاصي إذا أصيب بالأثر المعنوي الناجم عن المعصية، يمكن التخلص منه، ويعالجه كما يتم معالجة المرض البدني.

ـ بالطبع، فالله حينما فتح أبواب التوبة، فهو باب للتخلص من الذنب وتبعاته، فالذلة الناجمة عن المعصية يمكن الخروج منها عن طريق التخلص من الخطأ نفسه، لذلك قال الأمام السجاد :"ثوب مذلتي"، فالثوب ـ كما نعرف ـ هو لباس الإنسان ومظهره، وبه يمكن تقييمه ووضعه في المكان الملائم، ولكن أيضا هذا اللباس أو الثوب يمكن خلعه وتبديله بثوب آخر، بالتالي فالدعوة هنا ليس إغلاقا وقطع خط الرجعة إلى الطريق السوي، وإنما هي واقع خاطىء بحيث يحقق نتائج سلبية

يمكن تجاوزها، والخلاص من آثاره أيضا من خلال العمل الصالح.

هنا توصل الحائر على أن أزمته كلّها تكمن في ابتعاده عن الله جل شأنه، بل أن كل أزمات البشرية جمعاء تكمن في هذه العلة، وكل الذلة والمسكنة التي يعاني منها بعض الناس تكمن في عدم ارتباطهم بالله، فما كان منه ألا أن قال:"رحمك الله يا ملا حسن، فكلامك نور، حيث شرحت كلام النور من الإمام السجاد، ولا أعلم لماذا الغفلة تمكّنت مني، ونسيت هذه الجلسة التي نقلت لي صورة ناصعة بقيمة أن يكون الإنسان متدينا، أو يكون قريبا من الله، فالمتدين لو أخطأ (والخطأ وارد من كل أحد) فهناك أمل للعودة، لكن غير المتدين إذا أخطأ فسوف يواصل في أخطائه، ولن يشعر بأن هناك من يحاسبه، أو يراقبه، ومن أمن العقوبة أساء الأدب، وكيف غابت عني كلمات الإمام السجاد (ع)، حينما قام بتشخيص المعادلة القائمة بين العبد وربه، ليؤكد لنا جميعا بأن

داخلي INTERNAL

السلوك الإنساني يحدث أثرا نفسيا على صاحبه، إن سلبا أو إيجابا، فكما أن الخطايا تلبس صاحبها ثوب المذلة والصغار، كذلك العمل الايجابي والعمل الصالح يمنح صاحبه عزة ورفعة".

وبذلك توصل الحائر إلى أن الكثير من البشر هم أبناء سلوكياتهم، وما يجري عليهم هو جرّاء أفعالهم، وان كل حيرته وأزمته مصدرها ذاته لا أحد غيره.

على ضوء ذلك لم يكن منه إلّا أن قرّر أن يشعل الحريق في أوراقه، فهي مصدر أزمته، وكل مشاكله تكمن فيها، بينما يرغب أن يصاب بالزهايمر كي يبقى بدون ذاكرة، يعيش سوّيا بدون حيرة.

وبينما هو كذلك، إذ دخل عليه صاحبه الذي طالما سخر منه، وأطلق عليه النكات ، وعلى حبه للأوراق حتى أسماه :"ورقون"، بدلا من

"سعدون"، وما أن رآه يهمّ بحرق الأوراق وتكسير الأقلام مسك يده بكل قوّة قائلا له :

ـ هل جننت ياسعدون؟

فرد عليه:

ـ بل عقلت!

ـ وأي عقل ذاك الذي يدفعك لأن تحرق تراثك، وجهدك وعرقك؟

ـ غريب وأنت الذي سخرت عليّ، ولم تدع نكتة في الأرض ألا وقلتها عنّي وعن أوارقي، أراك تدافع عنها، رغم موقفك السلبي منها.

ـ أقول نكتة هنا وهناك، ولا تعني أن الذي تقوم به شيء غير مهم.

ـ إنها سر أزمتي، وكل مشاكلي من الأوراق والأقلام، وهذا العالم الذي لا أفهمه ولا يفهمني.

ـ كل إنسان لديه مشكلة، ولكن الموقف لا يتم بهذه الصورة المتهورة.

ـ أرجوك لا تمنعني دعني أحرق هذا الكرتون لأحيا مرة أخرى، فقد عرفت دائي ودوائي، فالداء هو الابتعاد عن المولى جل شأنه، والدواء هو العودة إليه، والتقرب له بالعبادة والعمل الصالح.

ـ أنت طول حياتك حمار، ولا زلت، وسوف أطلق عليك إسم "حمرون".

ـ عدت لموضوع الحمار، ياحمار

ـ هذا إنتاج بشري، وتراث فكري، صحيح أنه غير منظم، وغير مرتب، ولكن يمكن تنظيمه وترتيبه ونقله للأجيال، ألم تؤمن بنقل التجارب؟

وبعد شد وجذب وحوار بين الإثنين وافق سعدون أن يترك الأوراق لحالها، ولا يحرقها، وتعهّد لصاحبه بعدم التفكير في هذه الخطوة، لكنه مع

داخلي INTERNAL

ذلك قرر عدم العبث بها، لكنه لم يلتزم بل واصل العبث والبحث عن شيء مجهول في تلك الأوراق، فبعضها كتب قبل ثلاثين عاما، وبعضها قبل ثلاثة أيام، بالتالي فهي تاريخ وتاريخ عريق.

داخلي INTERNAL

- 10 -

لم تغب المسائل السياسية عن مسلسل حيرة سعدون الحائر، ولم تخل من نقاشاته، ولا من كتاباته المتعددة، ولأنه يخط أفكاره وحيدا، بعيدا عن الرقابة فهو يشعر بالحرية، ويقوده هذا الشعور نحو مزيد من الكلمات والمقالات والحوارات منطلقا من وصية أستاذه احمد عواد، التي مافتأ يكررها إذ قال له :"اكتب ما تعرف، وما لا تعرف، وما تفهم وما لا تفهم، ما تعي وما لا تعي"، وحينما سأله:"هل يعني أكتب كل شيء؟"، رد عليه:"نعم إذا أردت أن تكون كاتبا، أو أردت أن تتخلص من همومك وحيرتك".

والمشكلة لدى الحائر أنه التزم بالوصية وراح يكتب ولم يترك شيئا، ومن كثرة ما كتب بصورة فوضوية تاهت الأوراق وضاعت بعض المقالات، لكنه وما أن قرّر العودة وجد ما كتب، وتذكر ما

حدث لأن معظم كتاباته كانت بمثابة ردة فعل على واقعه المعيش، فذات مرة جرى له حوار مع احد المنتمين للأحزاب والمنظمات السياسية المعارضة للحكومة، فوجد من الحديث معه شيئا يستحق الكتابة، وربما ساهم الحديث عن نتائج تنجيه من قلقه الدائم، وهوسه القائم والمستمر، فكان بعض أوراق سعدون بمثابة وثيقة تاريخية لحوار سياسي ساد الساحة لفترة طويلة، وحسب تلك الأوراق يقول الحائر بأنه قد بادر ذلك الشخص بسؤال مفاجئ :

- هل العمل المعارض عمل شرعي أم عمل مخالف للشرع؟

فكان رد ذلك المعارض:

- العمل السياسي المعارض عمل شرعي لا يخالف أي شرعة أرضية أو سماوية.

- لكنه مخالف للنظام المحلي، أي أن النظام في بلادنا لا يسمح بذلك؟

ـ النظام لا يسمح بذلك، هذا شأنه، وربما كان هذا أبرز الملاحظات عليه، وربما كان هذا أبزر ما يدفع العديد من فئات الشعب لأن تعارضه و تختلف معه، فأن تختلف مع نظام سياسي معين لا يعني أنك اختلفت مع الله جل شأنه، وإن مصيرك إلى نار جهنم، وكذلك الموافقة والموادعة مع النظام (أي نظام) لا يعني بالضرورة أنك قد دخلت الجنة.. فالجنة والنار هي رهينة بالله، والعمل السياسي المعارض هو عمل دنيوي بحت.

ـ ومنذ متى كانت هناك معارضة للحكومة؟

ـ منذ زمن طويل، لأن من طبيعة نظام الحكم في بلادنا تعطي مبررا لمعارضته، حيث أن الحرية مختلف عليها، وحقوق الإنسان موضع ملاحظة، والعدالة والمشاركة بحاجة إلى إعادة نظر، ذلك ما أوجد حالة من الخلل في العلاقة بين فئات من الشعب والحكومة، ومهمتنا كمعارضة هو إصلاح

هذا الخلل، من خلال إصلاح الواقع، ونتطلع من الحكومة أن تستجيب لمطالب الشعب، من خلال إنهاء الأوضاع المنافية للحرية، وفتح المجال لكافة أبناء الشعب ومنحهم حرية الرأي والمعتقد والتجمع وما إلى ذلك.

هنا توقف الحائر - حسب الوثيقة الذاتية التي سجلها - وارتفعت وتيرة حيرته كالعادة، طالبا من المتحدث التوقف قليلا، والإيضاح أكثر، فالمسألة عنده لا تؤخذ بهذه السرعة، خاصة وأن حساسية شديدة تسود هذا الأمر، الذي يتعلق بوضع سياسي، وسمعة حكومة، ومصير شعب، فليس سهلا أن يتم الحديث عن معارضة سياسية في مثل بلادنا، فهذا أمر مرفوض وممنوع، حتى الناس أنفسهم ليسوا مستعدين للتجاوب معه، لأي سبب كان، ربما لجهل أو لعدم قناعة.

يقول الحائر:

"لقد سألت محدثي المعارض أسئلة كثيرة، أثارت استغرابي إجاباته، وزادت حيرتي أيضا، خاصة حينما قال بأن هناك دعوات شيوعية وبعثية وإسلامية ظهرت طوال تاريخ بلادنا، أليس غريبا أن يظهر في بلاد الحرمين الشريفين توجهات غير دينية، فهل من المتصور أن يظهر لدينا حزب شيوعي في السعودية أين الشيوعية وأين نحن؟

لكن محدّثي أكّد ذلك، وأوضح بأن كل التيارات الفكرية في العالم، كان لها صدى وأكثر من صدى في بلادنا، فهناك الشيوعي بفرعيه (الماركسي السوفياتي، والماوي الصيني)، وهناك البعثي (السوري) والبعثي (العراقي)، وهناك الديني (الشيعي الإيراني) والديني (السني الأفغاني) وكلها تنتقد الأوضاع السياسية المحلي كل من جانبه"، وكل توجه له نمطه الخاص.

لقد سألته:

ـ وما هي إشكالات الشيوعي، والبعثي، وكلاهما لا يؤمن بالله جل شانه، ولا يؤمن بشيء إسمه الدين؟

أجابني:

ـ إشكالات عديدة، وربما كثيرة.

ـ يمكن أن تذكرها.

ـ ولم لا؟

ـ هل هي مشتركة أم مختلفة؟

ـ مشتركة إلى حد ما، وهناك بعض الاختلافات في بعض المطالب.

ـ يمكن أن تشرح لي

ـ البعثي والشيوعي والديني يتحدثون جميعهم عن الديمقراطية، والتمييز الطائفي، والعدالة الاجتماعية

ـ الديمقراطية؟!

ـ نعم الديمقراطية

ــ وهل هناك ديمقراطية في دول مثل الصين والاتحاد السوفياتي او العراق، يا أخي فاقد الشيء لا يعطيه، فإذا كانت الدول الداعمة لهذه التوجهات لا تملك أي مسمى للديمقراطية فكيف تحث اتباعها للمطالبة بها؟

ـ إن كل أدبيات المعارضة التي تعود إلى فترة الخمسينات الميلادية وظهر عليها اسم جبهة الإصلاح الوطني، التي يقال أنها قادت اضرابات عمالية في مواقع شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) بداية تأسيسها، ثم ظهر وانبثق من هذه الجبة أسماء معارضة مختلفة التوجهات مثل حزب البعث العربي الاشتراكي، اتحاد شعب الجزيرة، ثم بعد ذلك ظهر اسم الحزب الشيوعي في السعودية، وحزب العمل الاشتراكي، وجميعها استمرت حتى منتصف السبعينات انتهت بعد وفاة

الملك فيصل، ومجي الملك خالد الذي بدأ عهده بعفو عام عن السياسيين من المحتجزين والمنفيين، وفي بداية الثمانينات من القرن العشرين جاء المد الإسلامي بانتصار الثورة في إيران، ظهرت لنا أسماء إسلامية مثل منظمة الثورة الإسلامية وحزب الله الحجاز، كل هذه الأسماء كانت تدعو للديمقراطية وتدعو للانتخابات وتنتقد التمييز الطائفي، وتدعو إلى حياة سياسية مختلفة، من قبيل توسيع دائرة المشاركة السياسية، كأن يكون هناك برلمان منتخب بالكامل، وان تكون هناك حريات للصحافة والرأي و التجمع، ذلك بغض النظر عن الوضع السياسي التي تعيشه البلاد الراعية لها، أو التي استضافتها في فترات العمل السياسي خارج البلاد.

ـ هل أفهم من كلامك هذا أنها تتناقض مع الدول التي أسستها أو رعتها؟

ـ لا، ليس هذا المقصود، وإنما اقصد أن العامل المحلي في نشوء المعارضة السياسية أقوى من العامل الخارجي، أي أن تلك المعارضات ـ كما تفيد أدبياتها ـ انطلقت من واقع تراه خاطئا، أو بحاجة إلى إصلاح، وليس بالضرورة، أنها تنفذ أجندات اجنبية كما قد يتبادر إلى الذهن، أو كما قد نسمع في الإعلام الرسمي.

ـ وكيف تفسر وجود أحزاب غريبة عن الإسلام، وتتبنى دعوات للتحرر ويتسم أفرادها بفساد الأخلاق؟

ــ هذا كما يبدو من المغالطات الكثيرة التي وقعنا فيها طوال تاريخنا، فليس كل شيوعي هو فاسق، ويدعو إلى الرذيلة، إنما هي دعوات سياسية يتبنّاها، ليس لها أي علاقة لها بالسلوك الشخصي، فالشيوعي أو البعثي لم تحتو دعوته إلى التحرر ـ كما زعمت ـ وإنما دعا لمطالب سياسية معينة

واضحة، وإذا كان في حياته اليومية ممارسات لسلوكيات منحرفة، أو خاطئة حسب العرف العام في البلاد، فلا دخل لهذه بتلك، فالمطلب السياسي شيء، والسلوكيات الشخصية شيء آخر.

ـ ولكن علام تدل هذه الظاهرة؟

ـ أي ظاهرة؟

ـ ظاهرة المعارضة، ووجود أحزاب علمانية في مجتمع ديني محافظ.

ـ هذا شيء طبيعي في أي مجتمع منفتح على الآخرين، إذ تسود بلادنا بين فترة وأخرى توجهات فكرية مختلفة، بعضها لديه بعد سياسي يتعلق بالأوضاع السياسية العامة في البلاد، وطول تاريخ المملكة لم يمر عقد من الزمان دون أن تظهر حركة أو حزب يبشّر بأفكار وتطلعات سياسية معيّنة، بعضها تحمل اللافتة الإسلامية، والبعض الآخر يحمل لافتات أخرى، قومية ووطنية، وحتى نفهم ظروف نشأة هذه التوجهات

ينبغي أن نفهم أن بعضها ربما نشأت بفعل توجيه خارجي سواء من دول، أو من مؤسسات دينية، أو مؤسسات تعليمية تربوية، بل أن بعض هذه التوجهات برزت كفصائل من جبهات أكبر، فحزب البعث العربي الاشتراكي فصيل من الحزب الأصل في العراق أو في سوريا، وينطبق هذا الأمر على منظمة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية التي هي فصيل من حركة (الرساليون الطلائع)، كما أن بعض تلك التوجهات نشأ وارتبط بأحداث محلية أو إقليمية أو دولية، تفاعل معها وتوسعت قاعدته الجماهيرية بفعلها، فانطلق ليدير تلك القاعدة إلى أن يخبو حماسها، ثم تعلن الحركة إغلاق أبوابها، فاتحاد شعب الجزيرة (مؤسسة ناصر السعيد) نشأ متفاعلا مع أحداث مصر الناصرية، وحزب الله الحجاز ومنظمة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية تفاعلا مع أحداث إيران عام 1979 وما تلاها من أحداث مثل

الحرب العراقية - الإيرانية التي استمرت ثمان سنوات (1980 – 1988) وهكذا وفي كل تطور خارجي له علاقة بالوضع الداخلي تنطلق ومضات الأفكار ثم تتبلور إلى أحزاب وتجمعات وأسماء.

لم أكن اعلم بهذه التفاصيل، وهذه الموضوعات، لكن الكلام غريب، والحوار بدأ يأخذ جوانب مختلفة، زادت من حيرتي، ولم أكن ناقص أزمات ومشاكل، لكني ما أن فتحت الموضوع لا بد من مواصلته، وقلت له:

- ألا ترى إن هناك تناقضا كبيرا في تحليلك للوضع، فتارة تقول أن هناك بعدا محليا، أفرز هذه التوجهات، وتارة تؤكد بأن عاملا أو عوامل خارجية وراءها؟

فقال لي ردا على السؤال:

- كلامك صحيح، لكن ليس هناك تناقض، إذ أن بعض أحزاب المعارضة نشأت في الخارج،

وبعضها نشأ في الداخل، لكن الطرفين ينطلقان من وضع محلي لا يمكن إنكاره، والذي يعطي صورة واضحة لفلسفة قيام جهات تعارض الدولة وبشعارات لا يقبلها المجمتع أو لا يستوعبها، أو لايتفاعل معها، على أن كل ذلك يرجع إلى أساس واحد ذي شعب وتفرعات، وهو أن الأوضاع العامة في البلاد، خصوصا على الصعيد السياسي لم تكن في يوم من الأيّام جيدة، وحتى يمكننا أن نصفها بأنها تسير إلى الأحسن، رغم إننا لو قمنا بإجراء مقارنة بين الوضع في بلادنا وغيرها من البلدان حتى القريبة منها، فإننا نخلص بنتيجة أن بلادنا جنة، ووضعها ـ على كل حال ـ أفضل، ولكن هذه الأفضلية قد تظهر على الصعيد المادي، أو على الصعيد الأمني على سببيل المثال، لكن ذلك لا يلغي حالة السوء في الأوضاع ومن مظاهرها عدم الحرية، خصوصا حرية الرأي، وحرية التجمع، وحرية العقيدة، وحرية الصحافة، ويسود

مقابل ذلك المزيد من انتهاك حقوق الإنسان واضطهاده على ابسط الأشياء، فالإنسان في بلادنا يشاهد المسؤولين في البلديات مثلا لا يولون أي عناية لمسؤولياتهم، مع ذلك لا يتمكن هذا المواطن أن يتكلم، وإذا تكلّم لن يتوقع أن شيئا ما سوف يتم إصلاحه، لذلك تجد الكثير من الناس ينتمي للأحزاب السياسية، انطلاقا من الأوضاع الخاطئة، في مثل هذه الدوائر والمصالح الحكومية.

ـ ماذا عن المقولة المتعارف عليها عن أن المعارضين كلهم من الشيوعيين،وأنهم يدعون لافتتاح البارات ودورالسينما لعرض الأفلام الخليعة؟

ـ لقد قلت لك في بداية الحديث أن هذه المقولة كاذبة ومشروخة، ربما صدّقها بعض الناس في حقب الخمسينات والستينات والسبعينات، ولكن أثبتت الأيام أن كل المنتمين لتلك الأحزاب ممن

تعرضوا للسجن والهجرة هم على مستوى عال من الأخلاق والالتزام الديني، بل هم أقرب إلى حقائق الدين وجواهرها من فئة المتدينين المتلبسين بمسوح الدين وشكلياته، فلم نجد منهم شارب خمر، ولا مقارنا للزنا ولاسارقا ولا ناهبا، وسقطت هذه المقولة حينما قامت حركات سياسية معارضة ترفع شعار الإسلام هو الحل، وتعارض الحكومة وفق أسس دينية وأظن أن القوى الوطنية تعرّضت لعملية تشويه غير مقبولة، هذا مع وجود بعض التحفظات على جميع أحزاب المعارضة، بكافة أطيافها، لكن هذه التهمة لاتعدو أن تكون باطلة وغير حقيقية، ولا أعلم كيف لشعب ينشد النمو والتطور ويحارب الجهات التي تسعى لتغيير أوضاعه وتعديلها.

ـ هل يمكن أن تشرح لي تلك الملاحظات؟

ـ هناك ملاحظات احتفظ بها لنفسي، ولا استطيع أن أتحدث بها، بيد إني أؤكد أن لكل عمل ضريبة، ولكل نشاط أخطاء معينة تحدث في كل مكان، ولا يوجد أحد في هذه الحياة معصوم الخطأ، ولكن الذي نراه أن المعارضة عمل إنساني رائع، يخدم العموم ويحقق مصلحة الشعب، ولا يضير هذه الأحزاب أن يظهر بين أفرادها أشخاص لا يقبلهم المجتمع، وقل لي بربك هل مجتمعنا قبل أحدا في حياته؟

انتهت جلسة الحوار، وكعادة سعدون الحائر، ما أن يقرأ مقطعا من مذكراته الفوضوية يقف أمام ذاته يناقشها، ويجادلها، ويناجيها، وقد يقسو عليها ويشتمها، لا لشيء إلا لأنه لم يستطع أن يتخلص من كثرة الأسئلة، ولم يتمكن من تجاوز معضلة الذات، تلك المعضلة المتمثلة في عدم وضوح الطريق، فتساءل ما بينه وبين نفسه :"سعدون لو انتميت إلى أحد أحزاب المعارضة، فمثلا لو كنت رفيقا لناصر السعيد، لاعتقلت وهجرت ثم تم

اختطافك، ولو كنت مع مجموعة جهيمان العتيبي وشاركت معهم في احتلال الحرم المكي عام 1400 حينها كنت من المعدومين، ولا تعلم هل أنت من الشهداء المرحومين أم من الضالين في نار جهنم؟ ولو التحقت بركب التيارات السياسية الشيعية وهاجرت مع من هاجر إلى ايران ـ الثورة فلربما صرت ضمن ضحاياها؟

وهل كنت تستطع يا سعدون ان تفعل ما فعل هؤلاء؟ وهل كنت ستتحمل جزءا من معاناتهم في هذا الطريق الصعب؟

ثم ما الذي يجبرهم على الالتحاق بمثل هذا التوجه؟

هل هو الدين؟

أم الشرف؟

أم أنهم عملاء لدول أجنبية؟

أنهم قصة غريبة عجيبة، لا يمكنني أن افهمها أو حتى أكتب عنها، لذا لابد أن أعود لذلك الشخص المعارض واستزيد منه، بغرض الفهم، وليس بالضرورة الانتماء والالتحاق بهذا التوجه، فالتوجه السياسي في مثل بلادنا أشبه بالمشي على الأشواك، من يدخله عليه أن يتحمل ضريبته، ومن يصارع الأسد عليه أن يتحمل مخالبه، ومخالبه لا ترحم.

عاد لصاحبه السياسي المعارض الذي تعامي باسم "حسين سعيد العامري"، عرف الحائر بذكائه بأنه اسم مستعار فسأله:

ـ ما الذي يدفع أمثالك لهذا الفعل، وأنت تعرف أنه مخالف للنظام؟

فرد العامري:

ـ أنت ماذا تتصور؟

ـ لا أعلم، ولكني أسأل إذا لم يكن هناك أي إحراج لكم

ـ لا ولكن يبدو سؤالك غريبا نوعا ما

ـ لأن الأمر الذي تتحدث فيه يحمل شيئا من الغرابة، فالمسألة صعبة للغاية.

ـ لا صعبة ولا هم يحزنون، إنما هي حالة طبيعية تحدث في أي مجتمع، فالخلاف وارد، والاعتراض أيضا وارد، فالناس ليسوا متفقين على كل شيء، كذلك الحكومات ليس منسجمة بالكامل مع شعوبها وإنما هي نسب متفاوتة.

ـ فهل المسألة فقط خلاف وجهة نظر؟

ـ تدخل في هذا الإطار، فنحن كشعب وكمواطنين، لدينا مطالب وحقوق مشروعة نتطلع أن تحققها الحكومة، أبرزها العدالة بشكل عام، والديمقراطية بما تحمله من مضامين الحرية والمشاركة في

داخلي INTERNAL

إدارة البلاد وحقوق الإنسان وتداول السلطة .... الخ.

ـ ولكن هذا منطق عدائي مع النظام في البلاد، وينطوى على دعوة حادة.

ـ هي مطالب لإصلاح النظام، وليس لإسقاطه أو تقويضه، بل هي أفكار وطروحات لو طبقت فإن المستفيد الأول والأخير من ذلك هو النظام الحاكم، إذ سوف ينزع الفتيل ويسحب البساط ممن يريدون للبلاد سوءا، فالذي يدعو للإصلاح يختلف عن الذي يدعو للتخريب، وهناك فرق شاسع بين الأمرين.. ونحن مطالبنا هذه لا نحمل سلاحا ولا ندعو لتفجير منشأة ولا لقتل مسؤول، وإنما نعمل بوسائل سلمية كالإعلام والتقاطع من الجهات الدولية والإقليمية التي تتبنى ما نحمل من تطلعات.

هنا تقدم الحائر بالشكر للعامري وقد توصل إلى أن ثمة وضعا مختلفا، ربما سارت أو صارت إليه البلاد فالكلام اليوم يختلف عن الكلام بالأمس،

فالناس في هذا الوقت تتحدث عن حرية وكرامة وعدالة وديمقراطية، بينما في وقت سابق كان تتحدث عن الخبز والثوب والأكل والنوم، ولكن إلى أين سوف تستمر هذه الحكايات، لا يدري فهو حائر كالعادة، ولا يملك إجابات حاسمة.

أنهى قراءة الورقة التي أطلق عليها "الوثيقة"، وقال :"غريبة هذه البلاد، كل شيء تجد فيها، وصدق من قال بأن بلادنا ليست نفطا، وليست كعبة مشرفة فقط".

– 12 –

في غمرة عبثه بأوراقه المتناثرة، وقصصه ومقالاته الحائرة، المعبأة بالقلق والحيرة، حيث لا تخلو وريقة من مشكلة، ولا تبعث إلا على المزيد من الألم، ألم الذات، وألم المجموع، وألم الحاضر والماضي والمستقبل، فالحائر يمثل نموذجا حيا لواقع الحياة، وتطلعات الشباب، وربما حكمة الكهول.. في مثل هذه الأجواء توقف مليا أمام مجموعة أوراق ذات لون اصفر فاقع لا تسر الناظر، لكنها تلفت كل من يقف أمام هذه الأوراق، التقطها من بين الكم الهائل من الأوراق متسائلا وكأنه نسي أو تناسي ما فيها، أو ربما لعبت عوامل الزمن في نسيانه مضمون تلك الأوراق:"ماذا عسى قد تحوي هذه الأوراق؟ ولماذا هي مختلفة عن غيرها؟ وهل هي مهمة، وهل ما تحتويه شيء مهم، كي يكون لونها مميزا عن غيره؟".. فكل هذه

الأوراق لا تتعدى ـ في نظرة الحائر ـ كونها أوراقا تزول وتضمحل وتصبح رمادا بمجرد إشعال عود ثقاب صغير يحيلها إلى شيء غير صالح للاستعمال، بل تكون ليست بذات فائدة.

هنا وبصورة لا إرادية نقل يده إلى تلك الأوراق الصفراء، التي لعبت عوامل التعرية دورا بها، وإحالتها إلى شيء قديم من أيام أبي عثمان الجاحظ، وما أن اطلع على عنوانها (اغتصاب سمير)، وأول جملة فيها حتى عادت به الذكريات إلى القصة أو الحادثة أو الشرارة التي دفعته إلى كتابتها، فالمقطوعة الأدبية لا تبدأ إلا بشرارة فيها لا تختلف عن النار الذي تبدأ بمستصغر الشرر، وكانت الشرارة هي حادثة اغتصاب قام بها شخص يدعى "حسين المنقاش" بحق طفل في المرحلة الإبتدائية يدعى "سمير"، اختطفه وهو متوجه إلى المدرسة، وأخذه إلى أحد البساتين، وفعل به ما فعل، وعاد الطفل إلى أهله وهو في

حالة مزرية، تبعث على الأسى، إذ أن معالم الاغتصاب بادية عليه وعلى جسده، فالعملية تمّت بوحشية، وانتهت بدموية، وأن الدماء التي غطت ملابس الطفل كانت كفيلة بتسليط الضوء على الجريمة، التي تناقلها الناس بصورة غريبة، فلم يرحموا ذلك الطفل المظلوم، الذي لا ذنب له سوى أن مسحة من الجمال ارتسمت على محيّاه، ذلك الجمال تحوّل إلى كارثة، وتحوّلت العملية إلى عقدة مستعصية لديه، ولدى أهله، استمرت لزمن طويل.

الحائر ـ الذي حكى القصة وأرّخها ـ وقف أسير الدهشة، تمكنت منه الحيرة مجددا، متسائلا عن هذا الواقع، وهذا العنف، وهذا الرضوخ القسري لذلك الجبان، انتقد ـ كغيره ـ العملية وأوردها بصورة لا تختلف عما يتداوله الناس، فالحادثة تدرّجت وانتقلت من عملية جنسية قد تنتهي بانتهاء العملية، لكنها باتت جريمة بحق طفل صغير، لا يدرك شيئا، فانتقلت بقدرة قادر إلى أروقة الشرطة

داخلي INTERNAL

وجرت فيها عملية تحقيق وتجريم، بل وتم سجن المجرم لعام كامل، وتم جلده أمام الملأ، بجرم اللواط بحق طفل، ولم تتوقف القصة عند هذا الحد، فالمجرم نال جزاءه، وبقى الطفل البريء أسير تلك الجنحة، لا يستطيع الفكاك منها، فالأطفال في مثل سنّه إذا ما اختلفوا معه أطلقوا عليه "المنقاش"، إذ يتم تذكيره بالقصة التي ما أن تهدأ حتى تتحول إلى نار تضطرم في داخله، فيضرب من يضرب ويشتم من يشتم، وإذا ما كان أمام شخص كبير فإن أول وسيلة دفاع هجومية يقوم بها هي حصاة ـ كبيرة أو صغيرة ـ يقوم برميها عليه، فربما أصابت وجهه أو رأسه أو يده أو حتى ظهره أو بطنه، بمعنى أن هذا الولد الصغير الوسيم، تحول بسبب هذه الجريمة ـ الفضيحة إلى مجرم لا يعرف سوى الشر، بل صار حاقدا على المجتمع، يقوم بكل فعل مضاد للناس، فالناس هم الذين ظلموه، وهم الذين عيّروه بجريمة كان فيها

ضعيفا، وكان هو الطرف المظلوم، وفي المقابل خرج الشخص الفاعل من السجن ونسي الناس جريمته، وصاروا يجالسونه ويتحدثون معه، ويلقى الاحترام والتقدير الظاهري، فمن يحتقره لا يجرؤ على الحديث معه، أو حتى يقوم بتذكيره بهذه الجريمة، لأنه كبير قادر على الرد لفظا وفعلا.

لقد وقف الحائر أمام الحادثة، وراح يقرأ تفاصيلها التي سمعها من الناس، وخطتها أنامله في أوراق صفراء، لقد حزن كثيرا، وأعادت عليه تلك الأوراق يوم جاء الخبر، بأن المنقاش فعل فعلا سيئا وشنيعا بالطفل "سمير" الذي تحول بفعل الصدمة إلى شخص فاقد لبعض القدرات النفسية، تمكن منه شعور بالحقارة أمام المجتمع الذي انتهك شرفه، وراح يعمّق فيه شبهة الإنحراف.

لقد بكى الحائر، وصبّ دموعه على شكل حروف وكلمات، وهو يستعرض تلك القصة، حيث عرف

أن الفاعل خرج في الصباح الباكر كالذئب باحثا عن فريسة يأكلها، ليفاجأ بالولد الوسيم النظيف وهو متوجه إلى مدرسته، فاستدرجه بدراجته، تحت حجة بأنه سوف يوصله إلى المدرسة وإذا به ينقله إلى بستان، ويقوم بالفعل المحرّم بصورة بشعة لا تحتاج إلى دليل على بشاعتها وشناعتها.

يقول الحائر في أوراقه الصفراء:

"لقد كان سمير جميلا وسيما، الكل يحبّه لوسامته، ويضحك معه لبراءته، فقد تربّى أفضل تربية من والديه الصالحين، اللذين لم يتوقعا أن ثمة وحشا كاسرا سوف يطعن هذه البراءة، وينسفها ويسدد لها رصاصة في مقتل، بل ويحيل تلك البراءة إلى المقبرة".

"هذا الطفل البريء، وهذه اللوحة الجميلة التي تستحق أن توضع في مكان عال مميز، وضعها هذا الوحش على الأرض، فهل الجمال والوسامة

جريمة تستحق من صاحبها أن تدنس في التراب، نعم لقد دنّسها وقتل البراءة، ولماذا يعيش هذا المجرم في هذه المجتمع، لقد فعلها المنقاش، فكان سمير ضحيته، وضاعت البراءة، وطعن الجمال".

ويتساءل الحائر:

"هل مثل هذه الجريمة تعود إلى ضغط الغريزة الجنسية، فإذا كان كذلك فالكل بشر بضغطها، والكل يعاني منها، فهل الكل قام بالاغتصاب، وما ذنب هذا الطفل البريء، كي يكون ضحية غريزة شهوانية تمكنت من هذا الوحش الكاسر؟".

بعدها انتقل الحائر إلى تحليل القضية من مختلف جوانبها ــ حسب وجهة نظره ـ قائلا:

"في هذه القصة ثلاثة أضلاع (الفاعل، والمفعول به، والمجتمع المنفعل)، أما الفاعل فهو مجرم في الظاهر، لكنه مظلوم في الباطن، فهو قد ظلم نفسه بارتكابه هذا الجرم، وتدنيسه لشرف طفل بريء، يضاف إلى ذلك أن مثل هذا الوضع بحاجة إلى

داخلي INTERNAL

حل فهو إنسان ذو غريزة جنسية تضغط عليه، ولا مجال لتلبية نداء الشهوة بالطرق المشروعة، فلجأ إلى الطرق غير المشروعة، وهل يمكن أن يلام شخص استجاب لرغبات الجسد، لكن العملية التي تمت لم تكن عملية شهوانية، أو أن الفاعل أراد تنفيس الشهوة وقضاء الوطر، ولو كانت كذلك لقام بالعملية دونما وحشية، وبدون إيذاء، لكن كما يبدو أن ثمة عقدة نفسية تمكنت منه أراد التنفيس عنها عن طريق الجنس، فهو أشبه بالحيوان، لو طال أحدا غير سمير لقام بالفعل نفسه، إذ لم يسبب له أي إغراء، ولكن ـ كما يبدو ـ أن ثمة نزعة عدوانية تمكنت منه فأراد التعبير عنها عن طريق الجنس، فالجنس وسيلة يلجأ لها الكثير من الناس في التعبير عن المعاناة، وهي حالة معروفة لدى المجتمعات التي تعاني من الكبت الاجتماعي والسياسي، فالبعض يستطيع السيطرة على مشاعره وغرائزه، والبعض الآخر لا يستطيع

ذلك، وكله عائد إلى التربية الذاتية والاجتماعية، في المنزل والمدرسة، فالفاعل أمي جاهل، لم يحظ بتربية صالحة، ولا يعرف طريق الصلاة والصيام، ولم يجد من يقوم بتربيته وتأديبه، امتهن السرقة والاعتداء وكان ينجو بفعل لجوئه إلى العنف، والناس تخشاه خوفا من شرّه، ووالده كان "شرّا مطلقا" لا يعرف سوى العنف والقسوة، فلم ينتج من هذا الشخص إلا الفعل السي، إذ لم تتم معالجته، لذلك انتشرت منه شتى صنوف الأوبئة، ولم يكن سمير الأول ولا الأخير في قائمة من اعتدى أو سيعتدي عليهم هذا الوحش الضاري، أو الفيروس المعدي.

لكن هل التعامل مع هذا المجرم كان موضوعيا؟

لم تكن التعاملات معه موضوعية، ولا سليمة فهو من بداية طفولته كان يعتدي ولم يتم إلزامه بالدراسة، فهو منذ صغره قد أعطي الفرصة كي يستهين بالأنظمة والقوانين، ولم يتم تعليمه وتأديبه

يوم كان صغيرا، أقصى ما كان يتم التعامل معه هو الضرب المبرح، أو حتى السجن، فقد دخل السجن أكثر من مرة منذ أن كان صغيرا، لذلك لم يكن مستغربا أن يدخله وهو كبير.

الخلاصة إنه عيّنة من أبناء المجتمع، الذي يمكن تشبيههم بالثمار الفجّة، التي لم تتم مراعاتها كي تنضج بشكل طبيعي، لذلك كانت ثمارا ضارة، وكان الأولى بها أن تكون ثمارا نافعة.

أما الطرف (المفعول به) فهو مظلوم منذ البداية، ولا يحتاج إلا إلى التعاطف، والعمل على أن يتجاوز محنته، لا أن يتم تذكيره بهذه الحادثة ليتحول مجرما، إذ لا يستبعد أن يكون مثل قاتله، فيتحول إلى مدمن أو مقارع لشيء من أنواع الجرائم، وإذا لم يتم معالجته سريعا فقد يتحول إلى حشرة ضارة أخرى، فيكون ذبابة أو بعوضة تنقل

الأمراض، بدلا من أن يكون نحلة تنتج العسل وتتنقل بين الأزهار.

وبعد أن يحلل الحائر نفسية الفاعل والمفعول به، يصل إلى نتيجة واحدة، وهي أن "المنقاش" ربما كان "سميرا" فتحول إلى المنقاش، و"سمير" هو مشروع منقاش آخر، بمعنى أن المجرم لم يولد مجرما، إنما كانت هناك عوامل جعلته مجرما، فالبراءة طعنت وقتلت، وكان بديلها الإجرام.

بعد ذلك ذكرت أوراق الحائر الصفراء أن المجتمع انفعل مع الحادثة وقام بتناولها في المجالس والديوانيات، تارة بنوع من الأسى، وتارة بنوع من السخرية، والكل يتحدث عن الحادثة بعيدا عن المسؤولية، وبشعور يستبعد أن يحدث الفعل بحقه، فلا أحد يتصور أن حادثة المنقاش مع سمير تحدث له أو لإبنه أو لأحد أقاربه، فالكل تداول القضية واستعرض بعض فصولها، وراح إلى منزله نائما مرتاح البال، بينما

"سمير" أسير العناء والشعور بالدونية والرغبة في الانتقام من الناس جميعا، و"المنقاش" أسير السجن والذنب.

إن هذا المجتمع لا يعدو أن يكون منفعلا فقط، لا فاعلا ولا يملك حلا ولا وسيلة لمنع مثل هذه الجرائم، فقد ألقى المسؤولية على الدولة وأجهزتها الأمنية، ولو أن أهل "سمير" لم يقوموا بالتبليغ عن هذه الجريمة، لكان جريمة مثلها مثل غيرها، يتداولها الناس ولا يعاقب الجاني، ولا يتم إنصاف المظلوم، إذا لم تتم معاقبته هو الآخر بهذه الجريمة، فبعض أبناء المجتمع أقوياء على الضعيف و المظلوم، لكنهم جبناء أمام المجرم، فهم بذلك شركاء في الجرم، وهو يستحقون شيئا من العقوبة، أظن أن الله جل شأنه سوف ينزلها عليهم في الدنيا قبل الآخرة، فعدالة الله جل شأنه ترفض أن يعاقب المظلوم ويترك الظالم.

هنا توقف الحائر عن القراءة، ونظر إلى الأعلى، وتمعّن في سقف الدار، مستغربا بأن هذا السقف لم يسقط، وكيف أن السماء لم تنزل على الأرض، وكيف أن غضب الله لم يأت بعد، وهنا تذكر مقولة الملا حسن حينما قال له :"إن عرش الله يهتزّ إذا جرت عملية لواط، او تمت حالة طلاق، وإذا ما قام أحدهم بالكذب على الله ورسوله".. فقال الحائر:"عجبا لعرش الله كم مرة يهتزّ، فاللواط يجري في كل مكان، فما ظهر وعرفه الناس قليل من كثير، وما يتم في الخفاء أعظم وأمرّ، فالبعض تفوح رائحته التي تزكم الأنوف، وتبعث على القلق والاشمئزاز، وبعضها تتم مداراته، انطلاقا من الله يحب الستر، ومن أجل الحفاظ على نفسية من تعرض لهذا الفعل، مثل ما جرى لأحدهم حيث قام أهله بمعالجته وتركوا الفاعل يحوم في الأرض فلا دليل عليه، ولا رقيب، وصار حسابه مؤجلا ليوم الحساب، والبعض الآخر تعرّض لتحرّش جنسي فضّل أن يطوى صفحته، ويضعه في ثلاجة مقفلة،

لا أحد يعلم به خشية أن يتم تفسيره وتحويره فيصبح هو الفاسق المنحط، خاصة إذا لم تثبت التهمة على أحد، أو أن من اتهمه أنكر، ففي تلك اللحظة لن تقول الناس سوى أن هذا الشخص منحرف، ولو لم تكن فيه عادة الإقبال على الرجال لما أدّعى هذا الفعل واتهم أحدا بغير دليل.. أنها حكاية الجرم، التي ما بعدها حكاية، بل إنها الأغرب في عالم الإجرام، فهي التي لا يستطيع كل أحد أن يعترف أنه تعرّض لتحرّش جنسي انتهى بالفعل وتمت مباشرته ومواقعته حتى لو كانت رغما عنه".

وتبعا لذلك تأوه سعدون الحائر، وقال:" آه من المصير الأسود الذي ينتظر المجتمع، الذي يتعامل بعض أبنائه مع الآخرين على أنهم أشبه بالقطط أو بعض أصناف الحيوانات التي إذا قدّر واصطدمت به فعليك قتله، وإلا أضمرها لك فقام بقتلك، تلك الحالة مثل عملية اللواط فالمجرم إذا ما أراد أن

يحقق رغبته ويضمن سلامة نفسه فلا بد أن يكمل العملية، ولا يدعها ناقصة، حينها سوف يتشجع الطرف الآخر بالحديث عن تعرّضه لعملية اغتصاب لم تنجح، وهناك فرق بين الأمرين، بين نجاح العملية، حينها ستكون فضيحة، وسوف يشعر أمام الناس أنه ليس سويا، أو أنه شخص فعل به ما لا يليق، ولكن في حال لم تنجح فإن تلك الحالة تمثل نقطة قوة لديه تجعله يتشجع ويتجرأ على الحديث عن الوضع، وبصورة قد تضمن عدم التشويه.. إن مجتمعا هكذا تفكيره، أو أن عناصر في المجتمع تتحرك بموجب هذه الفكرة لا شك إنها عناصر لا تستحق أن تعيش، فالقبر أولى لها، وباطن الأرض أفضل لها من ظاهرها.

وبينما هو في خواطره الذاتية، ارتأى أن يواصل قراءة أوراقه الصفراء، ويتذكر ما جرى لـ "المنقاش" وماذا حدث لـ "سمير، فقد حوت تلك الأوراق الصفراء الفاقعة جملة من الحوادث تلت تلك الحادثة، أولى تلك الحوادث أن المنقاش وبعد

أن أمضى عقوبة السجن، وبعد بضع سنوات من العملية والجريمة البشعة، وبينما هو يسير بسيّارته على طريق الدمام ـ الجبيل السريع تعرض لحادث انقلاب ظل ينزف لبضع ساعات، لم يتوقف نزيفه إلا بعد أن توقف قلبه عن النبض، ليفارق الدنيا، فيما ظلت سيرته مطوّية، يتذكرها الناس بين أنفسهم وكأنما هذا الحادث الشنيع جاء عقابا له في الدنيا على ما فعله في الطفل البريء "سمير".. أما "سمير" وبعد سنوات من التوتر النفسي، اضطرت عائلته لأن تدخله مصحة نفسية في أمريكا، جاء بعدها سليما معافى، ليمارس حياته بشكل طبيعي، عدا أنه ينفعل ويكتئب لمجرد مرور ذكر الاغتصاب واللواط، ولكن مع مرور السنوات خفّت الوطأة وتراجع معدل الحقد لديه على المجتمع، وتوصّل إلى قناعة بأن المجتمع لا ذنب له بهذه الجريمة.

لم يكتف الحائر بعرض سلسلة الحوادث، بل راح في مقالته يحللها، ويزيد في تحليلها، ويبالغ في عرض العبر والدروس من تلك الحادثة، التي يقرّ بأنها ليست الوحيدة، ولن تكون الأخيرة، لينتقل من عرض حادثة "سمير" و"المنقاش" ليتطرق لظاهرة "المثلية" في المجتمع، تلك المثلية التي تعني ميل العنصر البشري جنسيا وعاطفيا لمثل جنسه، فالذكر يميل إلى الذكر، والأنثى تميل إلى الأنثى، بينما يفترض أن يحدث الميل الطبيعي (الذكر للأنثى، والأنثى للذكر)، فما حدث (ويحدث) في مجتمعنا أن شذوذا في العلاقات الجنسية، فما قام به المنقاش بحق سمير هو أمر شاذ، تم بالقوّة والاغتصاب، لكن هناك في المجتمع من يمارس فعلا شاذا بصورة يومية، وربما مع أكثر من شخص ويلجأ إلى أساليب ملتوية ومختلفة للحصول على لذته وشهوته الجنسية مع أبناء جنسه، ويفعل كما يفعل قوم لوط، ويأتي بكافة أفعالهم المصاحبة، لجنوح اللواط وهي الحديث

عن الجنس المثلي في المجالس والديوانيات، فيتم استعرض صفات الأشخاص الشكلية، والبحث عن وسائل الإيقاع بهم، بالإغراء تارة، وبالتهديد تارة أخرى، وبالخديعة تارة ثالثة، كم وكم من الأشخاص أوقعتهم ظروفهم المادية والمعنوية، في مثل هذا الشراك، البعض يدخل هذا المطب لمرة واحدة، أو لفترة قصيرة، قد يكون مضطرا أو مجبرا، فيخرج بسرعة، بينما البعض يدخل لفترة طويلة، لا يخرج منها إلا إلى السجن أو إلى القبر، فمن زمن طويل حتى في زمن الغوص، وفي فترات ما قبل النفط كان البعض يتخذ له خليلا لهذا الغرض، اتفق على تسميته "ولد الهوى"، فهذا الولد يقضي فترة معينة من عمره مع شخص أكبر منه، يقوم الكبير بالصرف عليه، والتمشية معه من وقت لآخر، مع بعض الأنس والمعاشرة الجنسية، وقد تستمر لبضع سنوات، وقد تتحول فيما بعد إلى صداقة طبيعية، خاصة إذا ما كبر الولد، ولم يعد

داخلي INTERNAL

قابلا أو صالحا للفعل الجنسي، فربما يكون مستقيما في سيرته، أو يقوم بالفعل نفسه، أي يسعى لأن يضمّ له ولدا أو إثنين من أولاد الهوى، كل ذلك يعتمد على الإمكانية المالية، وقد يتوقف البعض عن السلوك الجنسي المثلي بعد الزواج، بينما البعض الآخر يستمر في علاقاته مع منهم أصغر سنا، وقد يمارس الجنس ـ وهو محرّم شرعا وعرفا ـ مع بعضهم .

ويرى سعدون الحائر أن هناك مظاهر عديدة لشيوع المثلية في المجتمع المحلي، فالأغاني، وتبعا لها الأشعار الشعبية كلها تتغزل في المذكّر، بل أن بعض حفلات الغناء تجد أن ثمة راقصة تنزل وسط الجمهور، هذه الراقصة تربط وسطها وخلفيتها، فترقص وتهزّ كل مفاتنها مثل نجوى فؤاد وسهير زكي، وسامية جمال، وفيفي عبده وغيرهن لكن هذه الراقصة ليس إلا صبيا شاذا يقوم بالرقص ويحصل على بعض المال، لا تختلف عن طريق "التنقيط" في البارات

والكباريهات في مصر وسوريا المغرب والهند، وقد يدخل هذا الشاذ في متاهات جنسية مختلفة.

ولا تخلو العبارات من المعاني الجنسية التي تطلق على الأولاد مثل "الوردة" و"الكيكة"، و"الويو" و"الفانتا" وتسود جمل الحب والغزل بين الذكور، ويحدث أن البعض يمارس عناقا عاطفيا وقبلا حارة، قد تنتهي بممارسة جنسية مثلية من الطرفين، وإذا كانت هذه الأفعال تتم في وقت ما في البساتين، هي الآن في الاستراحات والمنازل، وكلّها أعمال تعارف الكثير من الناس عليها، بل اتفقوا على وجودها ما أدى إلى شيوع حالة من عدم الثقة، وسوء الظن بين أبناء المجتمع، فما أن يصاحب شخص شخصا أكبر منه سنا إلا ويتم تحذير هذا الصغير من هذه الصحبة غير الطبيعية، فالكبير يريد الصغير لفعل جنسي، ويحدث أن يتم نصح الكبير بأن هذه الصحبة ليست سليمة ففيها جلب للشبهة، فما من علاقة من هذا

القبيل إلا ونظر المجتمع لها بهذه الصورة، وكأنما الجميع ذوو توجهات شاذة، فلا يشفع لأحد في هذا المجال سمعته أو سيرته البعيدة عن هذه التوجهات، وربما كانت الحوادث التي تتم ويتحدث الناس عنها بين فترة وأخرى سببا في تراكم ثقافة العيب، والدعوى لسلوك الحذر من كل أحد، بل أن البعض يقوم بالتوجيه والنصح لمن هم دونه في العمر، ويسعى لأن يبصّرهم ويحذّرهم من عواقب الذهاب والمجيء مع من هم أكبر سنا، ويورد لهم قصصا كثيرة من التغرير والخداع، بل أن بعض العلاقات الشخصية لا تخلو أن تكون فخّا أو طعما يتم من خلالها اصطياد بعض الأطفال للعبث بشرفهم.

في تلك اللحظة توقف سعدون الحائر عن القراءة، ليمنح نفسه لحظات من التأمل والتفكير في هذه الظاهرة، إذ ثبت لديه أنها ظاهرة موجودة في كل عصر، ولم يخل جيل من الأجيال لم تظهر فيه بعض القصص والحوادث من هذا القبيل، وهنا

تذكر أنه استمع من بعض كبار السن أن بعض نواخذة البحر كانوا في أوقات حياتهم يتخذون لهم بعض أولاد الهوى، يقضون معهم بعض الوقت بالأنس والتسلية، بل بات معروفا أن ذلك الولد الغضّ هو ولد هوى ذاك الشاب، بل أن بعضهم وبعد مرور أكثر من ثلاثين أو حتى أربعين عاما يتذكر أن فلانا الذي صار جدا كان في وقت ما "ولد هوى" لأحد الأشخاص ممن انتقلوا إلى رحمة الله، فلم يشفع له موته بأن يتذكر بعض الناس أفعاله ونمط علاقاته يوم كان شابا.

وبعد برهة من التفكر والتحليل لهذه الظاهرة، عاد إلى أوراقه الصفراء الفاقعة، حيث تساءل وهو يستعرض فصولا من ظاهرة المثلية والميل نحو الجنس مع المذكر، قائلا بأن البعض يظن أن الظاهرة متفشية فقط في مجتمعنا دون غيره، بحكم أن قيودا كثيرة على العلاقات بين الرجال والنساء، لكن الذي يحدث أنها ظاهرة موجودة في أكثر من

مكان، بل حتى في البلاد الأمريكية والأوروبية، وحتى في البلاد العربية المعروفة بتحررها وانفتاحها، مما يجعل من الظاهرة لا تعدو أن تكون نوعا من الشذوذ ومن يرتكبها أول مرة فهو مجرم، ومن يكرّرها فهو مريض بحاجة إلى علاج نفسي متكامل، يعيده إلى جادة الصواب، والأسوأ في هذا الأمر حينما يصدر الفعل من شخص يفترض فيه النضج كأن يكون متعلما مثقفا متدينا، أو يصدر هذا السلوك من شخص متزوج ولديه أولاد.

هنا توقف الحائر عن القراءة مرة أخرى، تمكنت منه الحيرة بصورة أشد، فهو مسكون بالظواهر، مغرم بالتحليلات، غرق في عالم أوهامه وتحليلاته الخاصة، إذا به يفاجأ بصديقه الودود الذي طالما سخر منه ومن ولعه بالأوراق، جاءه فجأة ودخل عليه خلوته دون أن يطرق بابا، أو حتى يفتح بابا، فالأبواب كلها مشرعة، وهو مع ذلك يعرف الخارطة، دخل عليه ووقف أمامه

للحظات ولم يشعر الحائر بأن ثمة شخصا واقف أمامه، لم يكن من الصديق (سعد) إلا بادره بالحديث ساخرا:

ـ سعدون، سعدون، هل سافرت أم بعدك في البلد؟

هنا التفت الحائر قائلا:

ـ سافرت .. بعدي في البلد.. أنت متى دخلت البيت وكيف دخلت؟

ـ أما كيف دخلت فمن الباب المشرع على مصراعيه، أما متى جئت فقبل خمس دقائق، ولم ألحظ إلا شخصا قد حلت عليه اللعنة!!

ـ لعنة، تقصد من؟

ـ أقصدك أنت يا "........."

ـ يا.. يا... ماذا؟

ـ يا حبيبي

ـ شكرا

هنا توقف عن الحديث الهزلي للحظات، ليأخذ بعض الجدية، وإن كان سعد لا يترك المزاح حتى في أحلك المواقف وأشدها، فراح يحدّثه:

ـ سعدون حبيبي، في كل مرة تجلس مع الأوراق تصاب بحالة غياب للذهن، حتى قال الناس عنك بأنك مجنون، لكنك هذه المرة بلغت مبلغا لا يطاق، فلقد دخلت عليك ولاحظت دموعا هطلت من عينيك، صحيح أنك مصاب بدورة شهرية كالتي تصيب النساء، لكن لم أتصور أن أوراقا تجلب لك المرض، فالباب الذي تأتيك منه الريح أغلقه، كما قال أصحابك المصريون:"الباب اللي يجي لك منه الريح سده واستريح"

ـ ليتني استطيع أسده، أو حتى أكسره (يجيب الحائر)

ـ إذن المسألة كبيرة، شاركني في الحديث فأنا صديقك، صحيح ليس لدي اهتمامات تافهة كالتي تهتم بها، لكني أبقي محبا لك.

ـ يا أخي حاول أن تهذّب ألفاظك، وتنمّق عباراتك.

ـ اترك عنك عباراتي وألفاظي، وأجبني عن سؤالي:"لماذا أنت مهموم لهذه الدرجة، فالدورة الشهرية لم تبدأ بعد؟"

ـ اتركني من المزاح واسمعني، أنا مهموم بقضية اللواط

ـ اللواط؟ هل أحدٌ طالك بفعل ما؟

ـ يا أخي اترك عنك المزاح الذي لا طائل منه، واسمعني فأنا قبل عشر سنوات كتبت مجموعة أوراق عن حسين المنقاش.

ـ تقصد منقاشوه ذاك الذي مات على طريق الجبيل

داخلي INTERNAL

- نعم هو نفسه، لعلك تذكر قصته مع سمير يوم كان طفلا

ـ وهل أحد ينسى تلك القصة، التي استمرت لبضعة أشهر، يتداولها الناس، وكل واحد يضع ملحا وبهارات وتوابل عليها، وصدقني لولا الحياء لتم تصويرها في مسلسل "طاش ما طاش"، لقد هلك الرجل وانتهت القصة، والأجيال بدأت تنسى الحادثة، لكثرة الحوادث المشابهة لها، فكل شخص راح إلى حال سبيله ولكن أنت ما الذي ذكّرك بها؟

ـ لقد ذكرتها لأنني دوّنتها في أوراقي الصفراء، واليوم بعد سنوات طويلة أتذكرها، وأتمنى لأن أصل إلى إجابة على أسئلة تحيّرني دائما وتقلقني على طول الخط

ـ أسئلة عن الحادثة نفسها؟

- لا عن الظاهرة؟

ـ أي ظاهرة أتعبت قلبي؟

ـ ظاهرة اللواط

ـ اللواط موجود في كل مكان، في بلادنا وغير بلادنا، حتى أنه في الزمان الغابر لا ندخل نخلا إلا وتجد موقعا خصص لهذا الفعل، والآثار تدل عليه، لقد وصل مجتمعنا في وقت من الأوقات لا يتصور أن أحدا من أبنائه الشباب إلا أن يكون فاعلا لهذه الجريمة، أو مفعولا فيه.. بل أن بعض الناس عاشوا وماتوا وحتى بعد موتهم والناس تذكرهم بهذا الفعل، وهناك من الأشخاص من يتفاخر بأنه في يوم من الأيام لم يترك أحدا إلا وهتكه، بعضهم يمارس هذا الفعل بدافع شهواني، وبعضهم يزاوله بدافع انتقام، حيث لا يجد طريقة لإذلال أي أحد إلا بالفعل فيه، ويحدث أن أحدهم يريد أن ينتقم من أحد أقوى منه فلا يستطيع، فيقوم بالاعتداء على أخيه الأصغر، والبعض يعيش حالة من المتعة والأنس بالأولاد ذوي البشرة الفاتحة، ففي كل مرة يعقد علاقة مع أحدهم، لا أعلم هل

يمارس الفعل المحرّم معهم أم لا، ولكنها علاقة تجلب الحديث والشبهة، ولا أبالغ لك إذا قلت لك أن بعض الشباب "الحلوين" اتخذهم البعض أشبه بالتحف، يذهب معه لكي يثبت للآخرين أن هذا الشاب الوسيم يمشى معه دون غيره، وإذا مررت بعراك بين إثنين من الشباب فضع احتمالا ولو ضعيفا بأن قصة من هذا القبيل فيما بينهم، لأن عينات من مجتمعنا بلغ بها الانحطاط أنها لا تتصور شخصا يمشى مع آخر إلّا وأن ثمة شيئا محرّما بينهما، خاصة إذا كان الإثنان أو احدهما على مستوى معين من الجمال والوسامة، أو أن هناك فارقا كبيرا في السن.

هنا تدخل سعدون طالبا من صديقه التوقف عن ذكر التفاصيل التي لا تعدو أن تكون توصيفا للظاهرة لا تحليل ليبادره

ـ السبب في ذلك؟

ـ السبب لا أعرفه ولا استطيع أن أحدده فهو معقّد، ومتعدد، فمن ناحية نجد أن بعض الشباب في فترة المراهقة وبعد بروز معالم الغريزة الجنسية لا يجد طريقا يفرغها، ومع أصحاب السوء يتعلّم هذا الفعل، فيمارسه فيجد فيه متعته فيواصل، أو قد يكون قد تعرض يوم كان صغيرا لعملية اغتصاب فكانت مدرسته التي تعلّم منها، فيتحول إلى فاعل بعد أن يشتد عوده، وهؤلاء الناس باتوا مضرب المثل، فقد قيل في زمن سابق :"نعوذ بالله من فعلة المفعول"، وهكذا تتسلسل العملية من واحد لآخر، وفي ظل غياب طرق قضاء الحاجة الجنسية بالطريق السوي، يلجأ الكثير من البشر إلى الطرق الشاذة.

ـ ولكن هناك من لا يسلك هذا الطريق، حتى وهو في سن المراهقة، رغم أن الجميع بشر، والجميع لديه الغريزة الجنسية.

ـ هنا تأتي قضية الالتزام والتدين والتربية والصداقات، فكلها عوامل تلعب دورا في هذا الجانب، فالشخص الذي لا يخاف الله يصدر منه هذا الفعل، كذلك الشخص الجاهل غير المتعلم تجده مثل أي بهيمة تمشى على أربعة أرجل تحركها شهوتها بينما العاقل المتدين حتى لو كان عازبا، لا يقدم على الفعل ولا يرتكب هذا الجرم، ولكن يا أخي نحن في هذه الدنيا لا نتصور أن يأتي زمان ليس فيه لوطية وزناة، لأن الشيطان موجود والأهواء والشهوات والمغريات ودعاة الجنس موجودون ويعملون على الدوام، ولكن لا حل لنا إلا بتقوية التوجيه الديني السليم، وتنمية الاهتمامات والهوايات المفيدة كالرياضة والمطالعة والفنون بمختلف أنواعها.

هنا ابتسم سعدون وقال :

ـ أراك مثقفا اليوم؟

ـ أنا مثقف منذ زمن، ولكن العتب على النظر، ومشكلتي إني صديقك، ولا استطيع مجاراتك في "الرغي" والكلام الفارغ.

ـ عدنا إلى السب والشتم

ـ السب والشتم أفضل من الحديث عن الشذوذ الجنسي ياحكيم الزمان

انتهى الكلام والحوار بين الصديقين لكن الحائر قرر أن يضيف حوار صديقه إلى أوراقه الصفراء التي لم تبق منها إلا كلمات محدودة خلاصتها أن الشذوذ الجنسي دلالة على غضب الله.. ثم التفت إلى صديقه قائلا:

ـ أتذكر قصة حمّودي

فرد صديقه:

ـ حمّودي! أول مرة أسمع بهذا الإسم.

ـ حمّودي هذا قصة طويلة، موجودة في أوراقي، رويت لنا منذ زمن طويل، كتبتها على لسانه، بصيغة أدبية علّمني أيها أستاذ اللغة العربية أحمد عواد، انتظر اقرأها لك

فمضى الحائر يقرأ قصة حمودي التي كتبها بلسانه، وكأنه (حمودي) يتحدث عن نفسه، قائلا لصديقه "أرجو أن تسمع القصة ولا تستعجل، لتفهم تأثيرات جريمة اللواط":

يقول حمودي ـ كما في أوراق الحائر ـ

لقد قررت أن أكون مستقيم السيرة، وعنصرا صالحا في المجتمع، فيكفي ما لحق بي من خسائر، في سنوات اللهو واللعب والفساد والانحراف، وليس لي طريق سوى الدراسة في المدارس الليلية المخصصة لمن هم في مثل سني، والعمل نهارا في سوق الخضار، فلا يتطلب العمل سوى شراء بضاعة بسيطة وبيعها، والرازق رب العالمين.

وهذا القرار جاء بعد جملة من الأحداث أبرزها إنني دخلت السجن مع مجموعة من المجرمين الذين لا مكان لهم سوى هذا الموقع، الذي لولاهم لما كان له أي وجود يذكر..فقد دخلت السجن بتهمة مقارعة الخمر وتعاطي المخدرات وممارسة الرذيلة والفاحشة، أنا ومجموعة من ثلة الإجرام، وجماعة الأخلاق المنحطة الفاسدة، التي لم تعرف في حياتها سوى هذه الأفعال الي ينهى عنها العقل والدين.

أنا احمد الساري، يحلو لأصدقائي أن يصفوني بـ "حمودي" خلقت فقيرا يتيما، أعيش مع جدتي العجوز، أكلنا كله من الصدقات مما يجود به علينا الناس، وفي كثير من الأحيان نلبس ما فضل من ملابسهم، وما بقي من غذائهم، بل أن غذاءنا اليومي هو نفسه الذي نعطيه للبقرة ومجموعة الدجاج والبط التي في منزلنا، الذي تصدق علينا به أحد الأخيار فالأرض موقوفة، ولا أحد يستطيع بناءها، وهناك خلاف كبير عليها، ونحن ساكنون بها ولا نملك من المال والحق في بنائها، وهي عبارة عن عشة لا تقي

من برد ولا حر، وكم هي معاناتنا حينما ينزل المطر، حيث نبيت ليلنا وسط بحر متلاطم الأمواج، تتراقص أعضاؤنا وأصابعنا من شدة البرد، وفي الصيف تتعانق أبداننا بكل مخلوقات الله كالبعوض والذباب والوزغ والفئران، التي باتت مستوطنة لعشتنا، وصديقة أفراحنا وتشاركنا في طعامنا القليل، كما تشاركنا البقرة والدجاج والبط.

كبرت على هذا الحال، الثوب يبقى على جسدي لبضعة أيام أغسله أو تغسله جدتي وألبسه وهو رطب، تقوم حرارة جسدي بتجفيفه، وفي حال هطول المطر فإن نعمة الباري تغسل الثوب وهي التي تجففه.

وفي هذا الحال ـ بالطبع ـ لا ماء لدينا، ولا كهرباء، ولا دورة مياه مثل التي عند الناس، وكم هي مؤلمة تلك الأيام حينما اسمع الأطفال يتحدثون عن المسلسلات التي تعرض في التلفاز، وكم كنت اشعر بالنقص حينما أرى الأطفال بأبهى ملابسهم وأنظف معداتهم فقد استحموا بالماء والصابون وقد اتجهوا إلى المدارس في الصباح، ثم ما يلبثون أن يتحدثوا في المساء عن أساتذتهم وما أخذوه من علوم، وما

احتفظت به ذاكرتهم من الأناشيد، حيث أن كل واحد منهم يأمل أن يكون شيئا في هذه الحياة، فواحد يتطلع أن يكون طبيبا، والآخر مدرسا، والثالث مهندسا، يؤلمني خروج الطلاب من منازلهم بحقائبهم، وازداد ألما حينما يرجعون الظهر وهم يغنون:"على البيت يا عيال البيت".

خرجت من المنزل إلى الشارع الذي لا يملكه أحد التقطني شخص يدعى منصور الواوي، وكان أول شخص أتعرف عليه، وهو أول من أطلق علي اسم "حمودي"، ففرحت بالاسم، وشعرت بالارتياح بأن أحدا ما بات يولي اهتماما بي، في البداية اشترى لى علبة بيبسي كولا، مع ساندويتشة بيض فتناولتهما بنهم، إذ أنا في غالب الأيام أنام جائعا، فالأكل لا يعدو كسرات خبر يابسة، وفي كل مرة يراني أمام البقالة وأنا أشاهد الناس تأكل ما لذ وطاب يشفق عليّ ويقدم لي شيئا مختلفا، مثل علبة بيسي كولا، أو علبة ايسكريم، أو قطعة شوكولاته (سنيكرز، أو بونتي، أو مارس)، وأنا لم أجد حرجا من ذلك، فماذا يضيرني

إذا أعطاني هذا الرجل من ماله، فأنا لم أطلب منه شيئا.

زادت المسألة فصار يتقرب مني، ويعطيني مصروفا، وقام بالذهاب معي إلى الخيّاط فطلب منه أن يقوم بتفصيل أربع ثياب جديدة، فصرت اشعر بأني مثل أولئك الطلاب، بل أن ثوبي أفضل من ثياب بعضهم، فضلا عن أن لدي مصروف جيب يصل إلى عشرة ريالات، وأنا طالما حلمت بالريال.

بعد ذلك صرت مثل الخاتم في إصبع منصور، الذي يأمرني فأطيع، يمر علي في عشتي فأذهب معه، اشترى لي دراجة عادية، ثم قام بتعليمي على قيادة السيارة، وأوصلني إلى مدرسة تعليم القيادة لاستخرج رخصة قيادة وتم ذلك بالفعل وصار يعطيني سيارته .

ذهبت معه إلى المقهي، التي لا يرتاده سوى المنحرفين والمنحطين، وتعرفت على مجموعة شباب أعمارهم مقاربة لعمري، يأتمرون بأمره، وينفذون ما يريده منهم، وفي حال خالف احدهم لا يتورع أن يضربة أو يشتمه، وأذكر أن بصق على واحد منهم أمامي وأطلق عليه عبارة غير لائقة، ثم التف لي

قائلا:" حمودي حبيبي ما أبغيك اتصير مثل هذا الحمار"، ففهمت المقصود وختمت الدرس، وصار علي أن التزم بما يقوله، وما يطلبه فهو "ولي النعمة" فمنه عرفت الدنيا وشربت الماء النظيف، وأكلت الآيسكريم والشوكلاتة، وعرفت المطاعم والبوفيهات. وصرت أقلده حتى أنني قمت بالتدخين مثله، وهو لا يتوقف أن يدفع قيمة الدخان، مع مصروف الجيب.

كل هذا، ولا أعلم ماذا يريد مني، ولا أعرف أهدافه من كل هذا العطاء، فقد طلب مني ألا أخالفه فقط، ولم يطلب مني شيئا سوى أشياء بسيطة، من قبيل جلب علب بيبسي كولا أو علبة دخان من البقالة فامتثل لأمره.

ذات يوم طلب مني الحضور إلى منزله، تحت حجة أنه أعد غداء لعدد من الأصدقاء ولم يكن مني إلا الامتثال فحضرت المنزل، ولم أجد أحدا غيره، فطلب مني الدخول، فدخلت منزله وذهب بي إلى غرفة خاصة به، وطلب مني الجلوس، ثم جلب شيئا من العصير، وبعض المكسرات، وبعض الفواكه،

وبادرني بسؤال غريب جدا ":حمودي تحبني"، فلم اعرف ماذا أقول له، واكتفيت بكلمة "نعم"، فصار يتقرب مني شيئا فشيئا، حتى التصق بي، وصار يقبلني في خداي، فلم اعترض، وراح يمطرني بالقبلات في كل مكان، من رأسي إلى أخمص قدمي، فطلب مني أن انزع ملابسي، فتحرجت قليلا، وراح بلطف يتوسل لي وكأنه كلب جائع، إلى أن دعاني إلى نفسه، وطلب معاشرتي جنسيا، وبعد ممانعة ورفض من قبلي تحول إلى وحش كاسر وأرغمني على ذلك، ففعل ما أراده وصار ماصار، ثم كرّر ما فعله مرة أخرى وبصورة أشد قساوة وعنفا، فما أن انتهى حتى انقلب على ظهره وصار جثة هامدة، وتركني لبعض الوقت في حالة نفسية غريبة جدا، وما هي إلا لحظات حتى قام ووضع في جيبي مائة ريال، مع علبة دخان مارلبورو أحمر، وطلب مني ألا أقول لأحد بما جرى بيننا، وذهبت إلى العشة وأنا اشعر بحقارة ما بعدها حقارة، مع آلام تنتابني في كل زاوية من جسدي، لكني مع ذلك نمت واشعر بسعادة مزيفة بالمائة ريال.

وفي اليوم الثاني طلب مني المجيء في الوقت المحدد، وجئت وحدث ما حدث، ولكن بصورة أقل ألما وتكررت العملية مرة ومرتين وثلاثا، حتى اعتدت على هذا الفعل، مع منصور ومع غيره، لأنه صار يتقرب لبعض أصدقائه عن طريقي، فتارة يدعو بعض أصدقائه على سهرة في المنزل أو في أحد الاستراحات ويدعوني معهم على السهرة فأكون أنا أحد بنود السهرة، وذات مرة أراد منصور أن يمارس الفاحشة مع أحدهم، فوافق بشرط آن يفعل بي أولا ثم يمكّنه من نفسه، فتم له ذلك فصرت أنا الواسطة لمن يريدون، وإذا ما أرادوا اصطياد شاب لأول مرة فهناك وسائل عدة منها هذه الوسيلة القذرة، ويحدث أن السهرة تدور حول أكثر من شخص، وأكون أنا فاعلا في سهرة، ومفعولا به في سهرة أخرى.

وذات مرة أذكر أنه طلب مني المجيء ليلا، وحدد لي مكانا آخر، غير منزله، فذهبت إلى ذلك المكان، ودخلت اذا بي أرى خمسة أشخاص من أصدقائه قد تهللوا فرحا مع مجيئي وكأنهم ينتظرونني، فجلست

فأعطاني كأسا به شراب بلون أصفر يميل إلى الحمرة، ولأول مرة أراه في حياتي، وله رائحة كريهة صعبة، ووضع فيه قطعة ثلج وأمرني بأن أشرب، فما أن شربت قطرة منه إذا بي اشعر بالغثيان وتوقفت عن الشرب، لكنه ألزمني بأن أكمل الكأس، فما أن أكملته حتى غبت عن وعيي، ولم أفق إلا وأنا في السجن، بتهمة تعاطي المخدرات والمسكرات ومزاولة الفاحشة، إذ تبين فيما بعد أن الخمسة أشخاص هؤلاء فعلوا بي فعل قوم لوط وأنا في حالة إعياء وسكر، وإن الشراب الذي تناولته ليس إلا أحد أنواع المسكرات والخمور المصنوعة محليا، وأن بعضهم قد تعاطى بعض المخدرات، وقد كان المكان مراقبا من قبل الجهات الأمنية، لتكرار هذه الحادثة في هذا الموقع فتمت مداهمته وإلقاء القبض على الجميع في حالة تلبس، وأنا معهم، حتى صرت في السجن معهم، لأعيش أياما سوداء، لم يتركني منصور وجماعته، وفي كل مرة يدعونني إلى هذا الفعل، فاستجيب.

وذات مرة قررت بيني وبين نفسي بأن أوقف هذا المسلسل ، فلا شيء أكثر من السجن، والحياة لا قيمة

لها في ظل هذا الوضع، فجاء منصور يتحرش بي طالبا مني أن أمكنه من نفسي فرفضت، فأراد أن يمارس دوره كما كان في السابق، ورفع يده فما كان مني ألا أن مسكتها وأدرتها إلى الخلف وضربته على رأسه من الخلف فأغمي عليه، وقمت بفعل قوم لوط فيه أمام السجناء، وما أن أفاق أراد أن ينتقم مما جرى له، فرفع صوته وإذا بي قد تحولت إلى وحش كاسر لألطمه على وجهه، وقام أحدهم يريد أن يدافع عنه فركلته برجلي وقلت له :"اجلس مكانك إذا أردت الحفاظ على كرامتك".. وتوجهت للحضور قائلا :"من يبغي أمه تبكي عليه يدافع عن هذا الكلب"، فسكت الجميع، وبقيت مع منصور فصرت أضربه ضربا حتى كاد يموت في يدي، فلم يبق جزء من جسده لم تنله يداي، حتى سالت دماؤه من أنفه وفمه وخديه، فتوجت ذلك كله ببصقة على وجهه، وحينما سأله الشرطي عن ذلك لم تسمح له كرامته بأن يقول أن ولد هواه قد انقلب عليه، وقال بأنه إنزلق في الحمام.

هذه هي قصتي، من العشة الى السجن، فقررت أن أكون مستقيما فيكفي أن زهرة عمري وشبابي قد ضاعت في هذا الطريق الوحل مع هذا السافل، فكان أولى الخطوات هو الالتحاق بالدراسة في السجن، فتعلمت القراءة والكتابة، وبعد الخروج قررت العمل في سوق الخضار والفواكه، وأكسب رزقي بعرق جبيني.. وكان أجمل خبر سمعته بعد خروجي هو هلاك منصور الواوي، بعد أن اصيب بعلة لا دواء لها، افتقد فها ذاكرته وسار إلى نار جهنم وبئس المصير.. واسأل الله العفو والغفران".

بهذا انتهت قصة "حمودي" ليلتفت الحائر إلى صديقه، وهو في حالة إنهاك قائلا له:"أفهمت العبرة من هذه القصة، التي كتبتها أكثر من مرة وبأكثر من صيغة، ومثلها جرت مرّات ومرّات، وطالت العديد من أبناء هذا المجتمع، وهناك العشرات من الشباب الذين ضاعوا ضحية مثل الواوي والمنقاش، الذين هم بحق حثالة المجتمع.

وبهذا صمت الحائر وغادره صديقه وهو ينظر إليه نظرة شفقة وحزن.

– 13 –

لم يشأ أن يقفل الحائر قلبه، أو يغلق عقله عن الأحداث المجتمعية التي تجري كل يوم أمامه.. لم يستطع أن يكتم مشاعره وهو يقرأ بعض اليوميات التي ظل يكتبها، إذا لم يجد ما يكتبه.. وخلال قراءته لتلك الأوراق استبد به اليأس أمام مقطوعة أو مجموعة ورقية من تراثه القديم المتجدد، فقد التقط مجموعة من الارواق لا تقل غرابة عن قصة المنقاش مع سمير، وقصة الواوي مع حمودي، فهي تحوي قصة غريبة عجيبة، لم يستطع ان يتحمل الحائر إعادة قراءتها، وهو لا يزال مستغربا من ذاته كيف طاوعته أن يكتب القصة، التي آلمته وأزعجته في وقتها، ولا تزال تؤرقه لمجرد أن يتذكرها، تتمثل أنه ذات يوم كان يتمشى مع مجموعة أصدقائه بين المزارع في

جزيرة تاروت، تلك الجزيرة التي ما فتأت تعانق الحلم، وتقاوم اليأس، تلك الجزيرة التي يلتقي فيها البحر بالنخل، والماء بالهواء، والآثار بطموحات العصر، لقد انتقلوا من عين ام الفرسان، ومزرعة الوزارة ثم مزارع الحليبي ومنها الى مزرعة الدحكاني إلى أن حطت رحالهم في عين أم عريش، ومن شدة التعب والمشي في الصباح الباكر في ذلك اليوم الذي كان أحد ايام شهر يوليو الصائف رموا بأجسادهم جميعا في تلك العين الحارة الفوارة، قام أحدهم متبرعا ليجلب لهم قليلا من اللوز المحلي، ذلك اللوز الذي يشبه المشمش العجمي، ولكن بطعم آخر، إنه لوز"ام عريش" ذلك اللوز الذي لا يرقى إليه الشك، ولا تتسلل إليه الديدان، فهو نظيف على طول الزمن، فلا تكون واحدة من هذا اللوز مكانا أو مأوى لدودة ما، فهي نظيفة وكأنها نزلت من عالم آخر، غير عالمنا الأرضي.. بينما هم جميعا في لهو ولعب، وضحك ومزاح، إذا بصاحبهم الذي ذهب ليحضر اللوز لم

يحضر شيئا، بل جاء مرتبكا خائفا، مضطربا غير قادر على الكلام، وكأنما طعن بخنجر غرس في أحشائه، لكن في الظاهر سليم للغاية، واحتمل الحضور أن ثمة مخلوقا آخر قد ظهر له، فالمزرعة على جمالها وجلالها فهي تحوي من الكلاب والقطط والفئران وأبناء آوى، لكنه كان مذهولا وقد انقطع نفسه، طلبوا منه أن يتحدث، فلم يتحدث، ظن الجميع انه قد أخرس، لكنه طلب منهم أن يمنحوه فرصة كي يلتقط أنفاسه، وما هي إلا لحظات حتى أشار بإصبعه إلى الجهة التي ذهب إليها، فقام أحدهم حاملا معه عصا طويلة، فتبعه آخر قائلا:"خذني معك لنرى ما يجري هناك" وقال ثالث:"وأنا معكم"، وكلها دقائق إذا بالثلاثة جاؤوا في وضع مشابه لوضع صاحبهم، ولا أحد يعرف القصة، ومن عرفها لم يستطع الحديث عنها، هنا انطلق كبير القوم وقال :"القضية فيها سر"، وذهب وعاد وطلب من الجميع أن يجمعوا

ملابسهم، وينهوا برنامج السباحة، فالوضع خطير، ولا ينبغي البقاء هنا للحظة، فالمزرعة باتت مسرحا لجريمة، فهناك بنت شابة مطعونة في صدرها، والدم ينزف من بدنها، وهي ميّتة ويبدو أنها للتو قد قتلت، ونحن جميعا لا نتحمل جريمة ولا شرطة، والشرطة ورطة، هنا ذهب الجميع لائذين بالصمت، وكل واحد مذهول من المنظر، فالجريمة فظيعة، وهناك أمرأة مقتولة، يعني أن هناك من قتلها، ولماذا قتلها، فهناك سر في القصة، وأسئلة سوف تثار، ونحن في غنى عنها، لذا عاد الجميع ـ حسب رواية الحائرـ إلى إدراجهم، حتى شاع الخبر بعد ذلك، وقام أحد الرجال الكبار، استمع للحائر وجماعته، وطلب منهم السكوت فهو سوف يتصرف، وقام بدوره بإبلاغ الجهات الأمنية متحملا المسؤولية تامة، حيث أوضح لهم بأنه جاء كغيره إلى العين وذهب الى الموقع كي يقضي حاجة فرأى ما رأى، وما كان منه إلا إبلاغ الجهات الأمنية، وقد تم بالفعل،

داخلي INTERNAL

وبعد بضعة أسابيع على الجريمة، وكاد الجميع أن ينسوا ذلك المنظر المرعب، حتى استمعوا بيانا من وزارة الداخلية يؤكد صدور حكم الإعدام بقاتل تلك الفتاة، إذ تبين أن القاتل كان قريبا لها، بل محرما عليها، كان "خالا" لها، كل يوم يمرّ عليها المدرسة وينقلها إلى المنزل، فلا أحد يشك في أن خالا سوف يعبث بعرض إبنة إخته، فما كان غير متوقع قد حدث، إذ أن هذا "الخال" لم يراقب الله في شرف أخته، وإبنة إخته، فجرت بينهما علاقة جنسية محرّمة انتهت بأن ظهرت على البنت آثار الحمل، وحتى يتم التخلص من الجريمة والفضيحة تم التخلص من الفتاة، بأن قام بطعنها عدة طعنات في أجزاء مختلفة في جسدها، حتى خرّت ميّتة رماها قرب عين أم عريش، تلك العين الواقعة وسط بستان رائع وجميل، يقصده الشباب بعد أن ينهوا برنامجهم الرياضي على ملعب نادي الهدى، قرب مدرسة تاروت المتوسطة، لذلك فليس

داخلي INTERNAL

بمستغرب أن تكتشف الجثة في أي وقت، فتم اكتشافها بعد بضع ساعات من اغتيالها، عدا أن الاغتيال كان فظيعا، قاسيا، بل بالغ القساوة والتهوّر، فهي بنت لا تزال في عمر الزهور، فلم تتعد سن الخامسة عشرة، لقد ماتت مضمّخة بالدم والعار، ملطّخة بلعنة الشهوات الرخيصة، ولم يأت ذلك إلا من تغرير خالها الذي لاقى حتفه، إذ تم إعدامه بجريمتي الزنا مع محرم والقتل المتعمد، مصحوبا بكل لعنات البشر، فالتاريخ لن يذكره بأي عمل صالح، بل لن يذكره بغير هذا العمل الذي نقله إلى عالم الهلاك، هلاك الجسد والسمعة، واللعنة، فضلا عن المصير الأسود يوم القيامة.

لقد خط سعدون الحائر هذه الحادثة لمجرد أن سمع بيان وزارة الداخلية الذي أعلن بأنه سوف يضرب بيد من حديد كل من تسوّل له نفسه مخالفة النظام وارتكاب مثل هذه الجرائم.. نعم لقد كتب القصة بعد أن سمع العديد من الحكايات التي تناولت

الحادثة، وحينما كان يكتبها لم تتوقف دموعه، لأنه كان أحد الذين رأوا الجثة، ولأول مرة في حياته يرى امرأة غير محجبة، فالبنت قتلت ورميت عباءتها على الأرض، لم يستوعب الموقف، وكاد يغمى عليه، ولم تكن دهشته بأقل من صاحبه ذاك الذي طلب منه أن يجلب لهم اللوز، وكم كان ألمه شديدا، وهو يخطّ القصة وينسجها على الورق، لقد تعب نفسيا، وبقي لبضعة أيام يتذكر المنظر الذي لم يغب عن مخيّلته، لب هذا المنظر عاد بعد سنوات من الحادثة، حينما أراد قراءة القصة، مرة أخرى عادت الصورة وكأنها حدثت يوم أمس، وقد عرف نفسه بكل وضوح أنه ضعيف لا يستطيع مواجهة مثل هذه المواقف، فالدم والشرف والموت كلها مصطلحات صعبة على الحائر.

ولعل ما أثار استغرابه في هذه الحادثة أن المجرم هو خال البنت، ألم يقولوا بأن الخال أحد الأبوين، وكيف يتجرأ هذا الخال على شرف ابنة إخته، التي

لا تختلف عن ابنته، إلى هذه الدرجة يصل الانحطاط لدى البشر؟ وبهذه الصورة تكون الشهوة الجنسية حقيرة، ومن يتبعها حقيرا ألم نسمع من علماء الدين تكرار جملة:"ما أقبح بالمرء أن تكون له رغبة تذلّه"، فماذا كانت النهاية، لقد كانت هي القتل بالجرم بحق الفتاة المسكينة، والقتل بالقانون بحق الخال المجرم، ويعلم الله أين وصلت آثار المشكلة لدى العائلة المنكوبة بتلك البنت، وكيف حال أمّها التي فقدت ابنتها وأخاها في وقت واحد، وبصورة ولا أفظع منها، في جريمة اشترك فيها الإثنان.

وكعادته لم يتوقف الحائر عند الحادثة، وراح يسرح بخياله قائلا:"الآن مرت سنوات على الجريمة، ألم يشهد مجتمعنا جرائم مماثلة؟ أم أن هناك جرائم تجري في الخفاء يقوم الجميع بسترها، إلا إذا أراد الله فضيحة صاحبها، مثل ذلك الخال المجرم، الذي صارت قصته على كل لسان، يكفي أن الراديو والتلفاز والصحف اليومية

عرضت بيان وزارة الداخلية، الذي ذكر المجرم بالإسم، وشرحت تفاصيل الحادثة، لأن التحقيق كشف عن أن المجرم كان يأخذ إبنة إخته من المدرسة كل يوم، وفي بعض الأحيان كان أهلها يظنّون أنها في المدرسة بينما هي مع خالها، ولا أحد يشك، أو حتى يتسلّل إليه الشك أن الخال سوف يرتكب جريمة من هذا النوع، وبدلا من الذهاب إلى المدرسة حيث العلم والنور، تاهت في ظلام الانحراف.

لقد توقف الحائر، وقال ان الجرائم التي مرت علينا كثيرة لكن بفظاعة هذه الجريمة لم يحصل، أو ربما لم أسمع بها أنا!!

في هذا الوقت جاءه صديقه سعد، هذا الصديق الذي لا يأتي إلا في أوقات حرجة، دخل عليه، وسلّم، فردّ سعدون سلامه بنوع من التجهم، ولأن يعرف صاحبه ومزاجيته قال له:

ـ خير ياسعدون، هل مات أحد؟

ـ لا (يرد سعدون بصلافة)

ـ ولماذا تقول:"لا" وكأن أحدهم رفسك على ظهرك، أو لطمك على وجهك.

ـ لأن الموقف لا يحتمل، الدنيا في واد، وأنت في واد آخر.

ـ ما دمنا وصلنا إلى الأودية، فمن المؤكد أن هناك شيئا كبيرا، أرجوك اشرح لي القصة.

ـ القصة ـ كما تعرف ـ إني في هذه الأيّام قررت أقرأ هذه الأوراق، وأفرزها، ربما طبعت بعضها، لكني في كل مرّة، اقرأ كارثة، واقف أمام رزيّة.

ـ أي رزيّة، وأي كارثة؟

ـ أتذكر فتاة عين أم عريش؟

ـ تلك التي قتلها خالها، يومها كنّا في العين، وراح "صالح" يجلب لنا اللوز، وجاء وكأن شخصا

طعنه بخنجر في قلبه، ولما ذهبنا عدنا وكأن على رؤوسنا الطير.. وهل يمكن لأحد أن ينساها؟

ـ نعم تلك المسكينة، قرأت قصّتها مرة أخرى، بعدما كدت أن أنسى، إذا بي اليوم أعيد المسلسل، وتعود بي الحادثة وكأنها حدثت بالأمس.

هنا بدأ "سعد" يهدّيء صاحبه، ولكن بأي نوع من التهدئة، هو أشبه بمن يصب الزيت على النار، فقال له بأن تلك الحادثة واحدة من حوادث، تتكرر أمامنا كل يوم، تلك هي قصص الخيانة، خيانة الضمير والوجدان، وقبل ذلك خيانة المبدأ والدين، فالضمير حين يتكلّس لا ينتج صاحبه إلا أعمالا منحطّة، لاتبالي بأي عرف أو أخلاق.. أنت اليوم مكتئب لوفاة تلك المسكينة، التي وفدت على ربها، عفا الله عنها، ماذا ستفعل لو سمعت ما هو أدهى وأمر.

ـ وهل هناك أدهى من تلك القصة؟

داخلي INTERNAL

ـ نعم ونعم، وما خفي كان أعظم، لعلي أتذكّر أن احدهم ممن عرف بعلاقاته المحرّمة مع الفتيات، قال لي بالحرف الواحد أن واحدة من صاحباته الماجنات اعترفت له في ليلة غرامية حمراء، بأن الذي أدخلها هذا الطريق هو والدها، الذي اغتصبها وهو في حالة سكر، فاستسهلت فيما بعد هذا الأمر، هذا ما تفعله أم الخبائث وأم المنكرات، وهي المشروبات المسكرة، التي دفعت والدا متهورا لأن يقحم بنته في طريق الانحراف.

هنا طلب الحائر من صديقه الصمت، فهو لم يعد يحتمل مثل هذه القصص، إلّا أن صديقه ـ وبكل إصرار وأسى ـ راح يسرد القصص والحكايات، التي تعكس بعضا من الخيانات التي تتم يوميا ـ كما يرى ـ فأحدهم نقل زوجته إلى بيت أهلها بعد ولادتها، ولما ذهبت أختها إلى المنزل لجلب بعض الأغراض من غرفة نومها، إذا بها تفاجأ بأن زوج إختها العزيز في وضع غير لائق مع واحدة أخرى، قل لي بربك :"ماذا ستفعل هذه المسكينة

مع أختها التي للتو قد وضعت، هل تقابل هذه الهدية بهذه الرّزية ؟"

ـ أرجوك يا سعد اصمت، فلا أتحمل، فطاقتي محدودة، وإرادتي تخور وقد أصاب بحالة من الغثيان.

ـ وهل نسيت يا سعدون سارة؟

ـ سارة؟! تقصد بنت المرحومة الطاهرة أم محمود "الله يرحمها"؟ . لم أنسها، ولكني أريد النسيان وأنت تذكّرني بها.

ـ إنها قصة لا يمكن لأحد عاش تلك الحادثة أن ينساها، لأنها قصة خيانة صريحة، والخيانة هي بمثابة طعنة في قلب المجتمع، فهل أحد يتقبل ذلك الوضع؟ مسكينة تلك البنت لم يمر على زواجها سوى بضعة أشهر لتكتشف أن زوجها مع واحدة أخرى في وضع مريب، لم تتحمل الوضع، لم تستوعب الموقف، فسقطت، ولم يكن من أهلها إلا

نقلوها إلى المستشفى في وضع لا تحسد عليه، ولست معهم كي أتمكن من وصف حالتها.

ـ والى أين وصلت أخبارها؟

ـ تنتظر صاحب الأمانة، يأخذ أمانته، فهي في حالة نفسية لم تتخلص منها، لقد باتت معقّدة من كل شيء، والدتها ماتت، وهي الآن تنتظر ملك الموت فقط

ـ وزوجها؟

ـ راح في حال سبيله، بات من أصحاب الوجاهة الاجتماعية، الكل يقدم له السلام والتحية.. و "يا سلام .. يا سلام الله ".. هذا حال المجتمع تجد أن شخصا يرتكب جريمة ويقدم الناس له التحية والتقدير، وإمرأة تجد الخيانة أمام عينها يطلبون منها ان تتحمل وتصبر، ومثل هذه القصص كثيرة، فكم واحدة تحمّلت زوجها الذي لا يفارق المخازي ولا يترك المحرّمات، وإذا كان من أهل الملايين لا يترك السفر، ومع هذا لا يطلب من هذه

المرأة إلا أن تقدم فروض الولاء والطاعة، ولكن هل تريد الأغرب من هذه القصص كلها ياسعدون؟

ـ وهل هناك اغرب من كل هذا؟

ـ نعم ولكن قبل ما أعرض عليك القصص الغريبة، أرجوك أيّها الكاتب لا تكن سلبيا، وترى ان المجتمع فاسق فاجر، فمن نذكرهم عينات محدودة من هذا المجتمع، ففي المجتمع الصالح والطالح، وحينما نذكر هذه المواقف لأننا منزعجون منها فقط، وإلا فتيار الصلاح ليس ضعيفا، وأهله ليسوا قلّة.

ـ هذا صحيح، ولكن يا "سعد" أراك مسكت الحديث، وكأنك خطيب (ملّا) أعطي سماعة مكبرة للصوت، انت صرت مثلي، عدا أنك "ملاّ سعد"، وأنا الكيتب سعدون"

ـ أرجوك تتحمل، وكم قد تحملت أحاديثك التافهة، فعليك اليوم أن تتحمل شيئا من أحاديثي، ويمكنك

ان ترصدها وتكتبها، فقد تعوّدت عليك، ما أن أدخل معك في حديث حتى أراك قد كتبته في أوراقك الفاشلة مثلك.

ـ ما تترك السب والشتم .. واصل حديثك واتركنا من قائمة الشتائم التي لن تتركها حتى في القبر.

ـ اسمع يا سعدون، ما نلاحظه أن كبار السن حين يتحدثون مع بعضهم، لا يدركون أن الصغار يسمعون ويحفظون، وفي يوم من الأيام سوف يفهمون المقاصد وخلفيات الأمور، أتذكر ان جماعة جاؤوا إلى المنزل مع الوالد (الله يرحمه) وبدأت الحكايات تسرد، والقصص تتوالى الواحدة تلو الأخرى، فأوردوا قصة جماعة قرروا رفع شكوى إلى الدولة على جار لهم ، أتدري لماذا؟

ـــ لماذا ؟ (قالها الحائر بتأفف)

ـ إن هذا الجار قد أحال منزله إلى بيت دعارة، يجمع بين الرجال والنساء، الرجال يأتون من أماكن متفرقة، أما النساء فهم الزوجة والبنات،

فالرجل بات معدوم الضمير لدرجة قام بفتح منزله لمن يريد قضاء بعض الأوقات الممتعة مع عرضه وشرفه، قل بربك هل هذا يحمل ذرّة من ضمير؟

ـ لقد سمعت مثل هذه القصص، ولكنّي أراها أقرب إلى الكذب والتزييف.

ـ أتمنّى ذلك،

ـ أرجوك يا سعد أن تغلق هذا الموضوع، فقد أتعبتني، بل زدت تعبي، لكن الشيء الذي لم أفهم لماذا قلت:"يا سلام ويا سلام الله" كأنها أغنية؟!

ـ نعم هي أغنية عيسى بن علي الأحسائي (ياسلام الله وياسلام الله، ياحمام جر للاحان، صابني ما صاب خلق الله، سألني ماجا عبدالله، قلت ما شفته ولا جاني).

ـ هذا المطرب الشعبي، الذي شغل الناس في وقت ما بأغانيه، التي لم تخل من ألفاظ خادشة للحياء

داخلي INTERNAL

ـ لكنه ظاهرة في الفن الشعبي.

ـ ظاهرة؟!

ـ إن ما فعله عيسى يهون إذا ما قورن بما يفعله فلان وفلان، فهذا الفنان أميٌّ لم يتعلم، لا يقرأ ولا يكتب، لديه موهبة في العزف على العود، يحفظ الأغنية ويردّدها، وعلى الجميع القبول أو الرد، فالبعض تفاعل معه، وراح يردد أغانيه في كل مكان، خصوصا في مناسبات الزواج، بينما البعض الآخر اعتبر تلك الأغاني مجونا وانحرافا عن طريق الجادة، ولم يفعل الأحسائي كما فعل ذلك الخال بإبنة إخته، ولا ذلك الزوج مع زوجته، ولم يفتح منزله وصار بائع هوى، كما لم يفعل مافعله المنقاش ولا الواوي.

ـ آه يا سعد، لأول مرة اتفق معك، وتغلبني في الكلام، وأراك مقنعا، لكن الغريب منذ متى وأنت تولي اهتماما بـ "عيسى الأحسائي" وغيره، وهل أنت من أهل الفن، إن ما أعرفه عنك إنك إنسان

في حال سبيلك، والغناء والطرب أبعد ما يكون ، وأنت تميل إلى "المطاوعة" أكثر من "العفطية"؟

ـ الكلام معك يحيّر يا "الحائر"، ومع ألمه لكنه جميل، لأنك تعرف معزّتك عندي، ولكن الذي أعرفه أن هذه ظواهر أو حالات نعيشها ونسمع عنها يوميا، بعضها تزعجنا، وبعضها تبعث في قلوبنا السرور، وما يدريك لعل عيسى الاحسائي يريد الخير للمجتمع، لكنه لم يدركه، أو لم يعرف الطريق إلى ذلك، وهو يعتقد أنه يسعد الناس، فهو يريد أن يعيش من خلال تجارة الترفيه، ووجد تجاوبا من المجتمع، لدرجة ان نسخة إلبومه تباع بعشرة ريالات، وكان نسخة المطربين الكبار في ذلك الوقت بخمسة ريالات، هل تستطيع ان تفسر لي ذلك؟

ـ نعم استطيع

ـ تفضل

هنا أخذ الحائر دفة الحديث، متنقلا من موضوع إلى آخر، وقد هدأت نفسه، فالحوار اخذ طريقا آخر، فبدلا من قصة فتاة أم عريش، وبنت أم محمود، صار الحديث عن الأغاني، ابتداء من عيسى الاحسائي، فقال:

" لا شك أن عيسى الأحسائي ظاهرة في مجتمعنا، لكن الذين يستمعون له هم الفئة الدنيا، أي عوام الناس، لذلك فكل "الحمارة" و"الزبالين" وكل من كان أميا يستمع للأحسائي، إذ لا أحد سوف يترك أم كلثوم وعبدالحليم حافظ وطلال مداح ويستمع للأحسائي، الذي يغنّي ولا يدري ماذا يقول، لكن الوضع غريب في هذا المجتمع، خصوصا بالنسبة لإقبالهم على الأغاني، ففي وقت ما كانوا يتجمعون ويتسمّرون أمام التلفاز في المقهى للاستماع للمطرب العراقي حضيري ابوعزيز، كما تجمعوا أيضا لمشاهدة سميرة توفيق، فالإقبال على أغاني الأحسائي يدخل ضمن الموجات التي يمرّ بها مجتمعنا.

هنا تدخّل سعد وقاطع صاحبه قائلا:

ـ موجات؟ ماذا تقصد بالموجات؟

ـ اسمح لي اشرح لك الموجات، أي أن المجتمع أجيال، وكل جيل له ذوقه وتوجهاته، فما نراه سيئا في جيلنا قد يراه غيرنا حسنا، ولعلك تذكر بأن فتاة أم عريش أحدثت هزّة لدى المجتمع، بينما اليوم لكثرة القصص ربما لا تهزهم مثل هذه الحادثة. فالطرب أيضا موجة، أو موضة، ففي فترة من الفترات كان الجميع يستمع للأغاني ولكن في فترة معينة تضعف الظاهرة، ويتوقف الإقبال على الأغاني، ولعلك شاهدت الموجة الدينية التي طالت المجتمع أوقفت موضة الأغاني، وبالتحديد موضة عيسى الأحسائي.

ـ بالفعل، ولكن أريد منك شيئا وهي أن تسمح لي اقول لك :"سلام الله.. سلام الله" استطيع أن أقول إني نجحت ـ ولأول مرة ـ أن أنقلك من عالم الهم

داخلي INTERNAL

والحزن، إلى عالم أرحب، فالصديق يسعى لإدخال السرور في قلب حبيبه وصديقه.. أليس كذلك؟

ـ نعم وأشكرك، ولكن أحببت أن أقول لك بأن هذا "الكوم" من الورق يحوي شيئا من الحديث عن الأغاني وقصصها التي تبدأ ولا تنتهي، يمكنني أن اقرأها عليك لو أحببت.

ـ أرجوك أجّل الموضوع إلى وقت آخر، فأنا متعب

ـ مثلما تحب

وافترق الصديقان، لكن "سعدا" شعر بشيء من الفرح لأنه استطاع ان ينقل صديقه من عالم الهم والألم إلى عالم آخر أوسع، عالم يقدّس الفرح والسرور، ويسعى للسعادة، فقد يدركها وقد لا يدركها، خاصة وانه جاء لصديقه وهو يبكي، فما فارقه إلا وهو يضحك ويبتسم.

– 14 –

كل الأمور توحي بأن سعدون الحائر قد أصيب بشيء من الاكتئاب من هذه الأوراق، وقرّر أكثر من مرة ان يتركها، أو يحرقها، لكنه وعد صديق عمره بأن يقرأ عليه بعض ما كتبه عن حياة الفن والأغاني والإقبال عليها، فراح يعبث ويبحث بين الأوراق، وهو يتذكر أن مقالة طويلة خطّها عن ظاهرة الأغاني، ففي العادة كان يبحث بين الأوراق بصورة عشوائية، لكنه هذه المرة كان يبحث عن مجموعة أوراق بعينها، إنه يقصدها بذاتها، ويريدها هي بنفسها وليس غيرها، وبعد جهد طويل استطاع أن يحصل على تلك المجموعة، تذكر يوم كتابتها ولماذا كتبها؟ وكيف كتبها؟ وما هي المناسبة؟

كتب تلك المقالة عام 1983 تقريبا، في ذلك العام توفي المطرب الشعبي عيسى بن علي الأحسائي،

وقبل وفاته جالت الذاكرة بحادثة وفاة المطرب المصري عبد الحليم حافظ، حيث تناقل الناس خبرا مفاده أن عددا من الفتيات في البلد بكين على هذا الفنان، الذي يلقب بــ"العندليب الأسمر".. وجال بذهن الحائر موقفا لأحد أصدقائه بأنه قال لوالده بأن مجموعة من الفتيات في مصر القين بأنفسهن من أدوار عليا ولاقين حتفهن بعد سماع نبأ وفاة العندليب، فما كان من والده إلا ان قال بكل سخرية :"لو مات ألف مثل عبدالحليم، لما ألقيت نفسي من على هذا السرير"، وكان سريره لا يزيد عن عشرين سنتمترا فوق الأرض.

توّصل الحائر إلى أن للغناء في المجتمع قصة، لها فصول، وحولها يدور كلام كثير، يبدأ ولا يتوقف، هناك جدل حول الأفضلية بين المطربين، وهناك جدل حول الغناء نفسه، فهناك من يراه يرتفع بالذوق البشري، وهناك من يراه مجونا محرما يبعث على الانحراف والرذيلة.

لم يشأ الحائر ان يقرأ حديثه حول الغناء إلا بحضور صديقه "سعد" الذي نقله من عالم الهم إلى عالم البسمة والضحك، فقام بالاتصال بصديقه:

ـ سعد

ـ نعم (سعد يقولها بملل كعادته)

ـ مالك تقول :"نعم" وكأن أحدا ما يسحبها من فمك القبيح، المليء بالقيح.

ـ لأني للتو، أجلس من النوم، ما بك عسى ما هناك شر.

ـ لا .. ولكن اشتقت لك، ولأحاديثك، وأحببت أن أقرأ لك بعض السطور.

ـ أرجوك لا تقرأ شيئا، كلها نصف ساعة وأنا عندك جهّز الشاي.

ـ الشاي جاهز

داخلي INTERNAL

جاء سعد وعلى طريقته في الاستهتار ، سأله:

ـ تقرأ لي بعض السطور، لا أريد سطورك ولكن اخبرني عن الموضوع الذي سوف تتحدث معي.

ـ أتذكر الموضوع الذي تحدثنا عنه حول ظواهر المجتمع أو "موضات المجتمع"

ـ تقصد الأغاني

ـ نعم الأغاني

ـ من أي جانب سوف تتحدث لي

ـ اسمع لي وبعدها ناقشني.

هنا قام سعدون بالحديث عن الظاهرة، بناء على ما كتبه عنها:

" الأغاني هي تعبير عن الشعور الجنسي والعاطفي، من الرجل تجاه المرأة، أو من المرأة تجاه الرجل، حديثها يدور حول محور واحد هو "الحب"، فالحب هو كل شيء في الأغاني، لكن

هذا الحب قد يتحول إلى حديث ماجن، أو حديث لهو، فالأغنية هي عنوان الفرح، فمن يغنّي فهو يدعو للسرور والتسلية، لذلك فمعظم الأغاني تتلى في مناسبات الأفراح، فالناس تسعد بها، حتى لو كانت حزينة، فالأغاني العراقية مثل أغاني ناظم الغزالي، وحضيري أبو عزيز، وزهور حسين، ووحيدة خليل، وبعدهم الياس خضر، وسعدون جابر، ورضا الخيّاط، فهؤلاء يقدمون الأغنيات المفرطة في الشجن، والتي تصلح لمأتم، لكنها من أجل الفرح، فالناس تتفاعل معها أوقات الفرح، رغم ما تحمل من عبارات الشجن والحزن والدموع ، والحال نفسه بالنسبة لباقي المطربين العرب مثل عبدالحليم حافظ، وفريد الأطرش، ونجاة الصغيرة، وطلال مداح، ومحمد عبده، فكل أغانيهم ـ أو غالبيتها ـ تتضمن مقاطع حزن وشجى ، لكن الناس تحب أن تسمع شيئا من الحزن لكي تفرح، فالناس تغنّي أو تسمع الأغاني من

داخلي INTERNAL

أجل أن تفرح، ومن أجل أن تعبّر عن شعورها في الحب والعشق والهوى، فليست الحياة كلها جد، وهذا حال جميع المجتمعات العربية وغير العربية.

هنا توقف الحائر قليلا، وكأنه أراد أن يستعيد شيئا من ذاكرته المليئة بكل شيء، عدا أن سعدا التفت إليه قائلا:

ـ الحديث جميل، أرجوك واصل.

ـ الحديث جميل، لكن قبل أن أواصل وحتى لا أبعث لديك الملل، خطر على بالي سؤال أردت أن أسالك أياه، وهو:"عندما قلت :"سلام ياسلام الله، سألني ما جا عبدالله" أترى من يكون عبدالله هذا؟"

ـ يحتاج اسأل عيسى الأحسائي في قبره

ـ أنا اسأل بشكل جدّي.

ـ وأنت من كل شيء تعمل قضية؟

ـ هي ظاهرة

ـ وكل شيء ظاهرة عندك؟!

ـ لاحظ أن الاحسائي لديه أغنية يردّدها الكثير من الناس يقول فيها:"يبوعلي مرّت ساباط الطويل، صوّبوا قلبي ثلاث دالعات"، تراه من يقصد بـ "ابوعلي"، كما المطرب الكويتي البلوشي لديه إغنية "جاني الفرح جاني يبو عبدالله"، وحضيري ابوعزيز لديه أغنية يناشد شخصا بإسمه:"محمد.. محمد"، وعوض الدوخي يصدح بأغنية:"يبوفهد مني غدا الشوق،"، وأخرى بعنوان"يبن سالم ترى قلبي عليكم حزين"، والأدهي من ذلك ان سعدون جابر يقول لإمه:"يمه هنا يمه، حبيبة هنا يمه، عليمن هلن ادموعي يم سعدون يمه"، أي أنه ذكر نفسه بإسمها في أغنيته.

ـ والمحصلة من كل ذلك؟

ـ المحصّلة أن الأغاني أشعار غزلية في الغالب، وهي تعبّر عن مزاج اجتماعي معين، وحديث بين

أناس، فتجد كثيرا من المطربين يبدى استياءه من أهله حتى ان هناك أغنية تقول:"هلي يظلام هلي"، فسعدون جابر خاطب إمه، وسميرة توفيق خاطبت أباها، كما خاطبت حبيبها بالإسم:"بيع الجمل ياعلي واشتري مهر إلي"، وعبد الحليم حافظ خاطب أهله "ياهلي ياهلي"، اما عيسى الأحسائي ففي أغانيه ذكر أسماء بشكل متكرر.. بالتالي فهناك دعوة من دعاة الطرب إلى الأهالي والأصدقاء بألّا يكونوا عقبة أمام العشاق، والعشق هو محور الأغاني، بالتالي يمكن القول أن بعض الأغنيات تتبنى الدعوة إلى الحرية والتحرر من القيود الاجتماعية، التي قد تفرض على العشاق، وتزيد من آهاتهم.

لم يعجب سعد هذا التحليل، رغم ما حوى من التفصيل والمعلومات، ليقول له:

داخلي INTERNAL

ـ كنا نتحدث عن شيء ونقلتنا بإسلوبك الفاشل إلى موضوع آخر، أرجوك أكمل الورقة وبعدها سوف نناقش مالم تتطرق إليه.

ـ الموضوع نفسه، الأغاني في مجتمعنا مثل الملابس، في كل فترة تجد موضة، ففي وقت ما كانت بعض الأسر لا تقيم حفل زواج إلا وفرقة فنّية تأتي، وربما كان الناس يعرفون عيسى الأحسائي والنسخ التابعة له من خلال حفلات الأعراس، لذلك صار ظاهرة ومن يريد أن ينجح في الأعراس فلن يردّد مقاطع لأغاني أم كلثوم أو محمد عبدالوهاب، وإنما سوف يردّد مأثورات عيسى بن على الأحسائي مثل:"علموها لعبة التنس والكورة، طبّت الملعب وصارت رياضية"، إذ يتم الاجتماع في مكان ما، ويتم العزف على هذه الأغاني، ولا يمنع أن ينزل بعض الشباب للقيام بالرقص المتعارف عليه، فتجد شابا يرقص مثل سهيرزكي.

ـ ولكن هل عيسى هو المسيطر على الأفراح أم هناك غيره؟

ـ هناك العشرات، لكنه أبرزهم، ومن جاء غيره هم نسخ منه، يؤدون أغان له ولغيره من المطربين، لعل أشهرها من الموروث:"جيته ينوحي فوق السطوح، عقلي وروحي يالولد آه ياسلمان"، او أغنية عباس البدري "قمر كنها، يا محلا ديك البنية، سألت عنها قالو لي خليجية"، فالناس في حفل الزواج تحضر لتستمع وتفرح، ثم تعود إلى منازلها بسلام..فالمجتمع ميّال إلى الطرب، ويحب الطرب، ربما توارث هذه العادة من أجداده الذين يقضون ستة أشهر من السنة في الغربة، وتحديدا في البحر بعيدين عن عوائلهم وأولادهم وأوطانهم، إنهم تحت رحمة الله، فقد تأتي عاصفة تنسفهم جميعا كما يتناقلون عن قصص سنة "الطبعة"، أو ينجون ويعودون سالمين فتنشرح صدورهم بلقاء أحبتهم، وفي هذا الغياب لا توجد أي وسيلة اتصال مع العوائل، فهم

في غربة أمام أخطار محدقة، ومصير مجهول، موت محقق في البحر.

ـ أنت دائما تجمع الأمور مع بعضها، ما دخل الغوص والغربة والأغاني والطرب؟ (سعد يتساءل)

ـ وأنت دائم العجلة، اسمح لي اشرح لك المسألة كي تفهم الأمور على حقيقتها، فلا تحكم عليها بالعجلة والتسرع؟

ـ واصل ياحكيم زمانك!!

هنا بدأ سعدون يشرح فكرته وينظر إلى أوراقه بين فترة وأخرى، وسعد يصغي إليه، وهو سعيد بما يقدمه، لأن الموضوع يتناول الحب، وموضوع الحب جذاب، وثبت لديه أن كل ما يقوله سعدون، سبق أنه قد كتبه، لكن حديثه عنه أفضل وأجمل، لأن سعدون يملك موهبة أخرى وهي موهبة الحديث وجاذبية الكلام فقال:

ـ العمل في الغوص، وهدفه بالطبع صيد اللؤلؤ، وهذا لا يتم إلا في النهار، وطوال ستة أشهر على ذلك المركب في حياة صعبة وغربة وتعب، ولا بد للعاملين في الغوص يقضون أوقات الفراغ، خصوصا في الليل، وكلنا يعرف ان ليل الصيف قصير، فالبعض ينام باكرا، بينما البعض الآخر يجلس يتمعن ويستمتع بجمال البحر، وكلنا يعرف أن البحر جميل في النهار، مخيف ومرعب في الليل، فماذا يعملون، أنهم يقضون فراغهم بالسمر والأحاديث والغناء، لذلك تجد في كل مركب مطربا يطلقون عليه "النهّام"، وهو القادر على أداء الموال البحري المتعارف عليه، والذي تم نقله وتداوله من قبل بعض الفرق الشعبية، فصارت تردّد المواويل في أجواء غير بحرية. هذا "النهام" يردد ما ينتجه شعراء الموال، وقد يكون هو نفسه شاعرا مثل النهام والشاعر عيسى بن محسن، ففي النهار يقوم الجميع بالغوص وصيد اللؤلؤ من مواقعه في قاع البحر، وخلال عملية الصيد يردد

البحارة بعض الموشحات، ويدعمهم "النهام"، وفي الليل يقومون بالسمر والغناء ويرددون الموال مثل:" ودعتكم بالسلامة يا ملا عيني، وخلافكم ما غمض جفني على عيني، ظلّيت يا سيدي جسم بليا روح، كل العرب هيّدت وانا شجي الروح، العقل مني ضرب وظل الجسد مطروح، يانور عيني مثل ما راعيك راعيني".. هذا الموال الشهير لمبدعه عيسى بن محسن يؤكد حقيقة الفراق واللوعة والاشتياق.. بالتالي فالغناء والطرب صار إنسهم ومرحهم في الغربة، ولا تعبر تلك الأغاني إلا عن الحب والشوق وألم الفراق والرغبة في العودة واللقاء، فضلا عن الاستمتاع بالهواء النقي، ذلك الهواء الذي يبعث في القلوب حركة لا يمكن وصفها، فتجعل الشعراء ينتجون إنتاجا يتم ترداده مباشرة.

ـ ماذا إذا عادوا إلى البلاد؟

ـ هنا الوضع يختلف أيضا، إذ يعود الجميع، فيلتقي الحبيب حبيبه، والصديق صديقه، فتكون المقاهي مواقع أنسهم وسمرهم، فتتم الحوارات فيما بينهم عن أهوال الرحلة وما جرى فيها، ولا يفتأون يرددون بعض المواويل البحرية، فقد يجلسون ـ وهم في إجازة ـ جلسات سمر وطرب يريحون أبدانهم ونفوسهم من عناء رحلة الستة أشهر في البحر، في الغالب تحدث مناسبات الزواج خلال فترة العودة، حينها يتم الطرب أيضا، وتكون المواويل البحرية والأغاني الشعبية المتوارثة حاضرة أكثر من غيرها.

ـ ذلك قبل ظهور النفط بالطبع؟

ـ نعم قبل ظهور النفط، وقبل ولادة عيسى الأحسائي وغيره، أما بعد ظهور النفط فالعمل في الغوص وصيد اللؤلؤ تراجع وانتهى، لكن أغانيه ومواويله بقيت يتوارثها الأجيال، فظهر شعراء في الموال جدد، وظهرت فرق شعبية، تردد مواويل

الغوص في أجواء غير بحرية، ثم ظهرت الفرق الشعبية التي تردد منتجات طربية من الكويت والبحرين، منتجات محمد زويّد، عبداللطيف الكويتي، الى ان ظهر لدينا عيسى الاحسائي كمطرب شعبي مع ظهور مطربين على مستوى العالم العربي، فصار الجميع يستمع للأغاني، وظهرت الاسطوانات، ثم جاءت الإذاعة ثم التلفاز، فكل شيء بات يبث والناس تشاهده وتستمع له، وظهرت ثورة الكاسيت، فكل مطرب لديه منتجات يتم الاستماع لها، فعزف بعض الناس عن الطرب الشعبي والبحري، فكان يديلهم الطرب الحديث (في ذلك الوقت) والقادم من الكويت ومصر والعراق ولبنان، وظهر لدينا في المملكة مطربون أبرزهم طارق عبدالحكيم ومحمد علي سندي، وعبد الله محمد، طلال مداح، محمد عبده، فوزي محسون، عبادي الجوهر، وجاء مطربون من اليمن وتداخلوا مع الطرب السعودي، مثل

ابوبكر السالم، وعبدالرب ادريس، فصار الغناء سوق لمن يريد، فهناك من يهوى العراقي فيسيح مع شجن ناظم الغزالي وحضيري ابوعزيز، وزهور حسين، ووحيدة خليل، وهناك من يهوى الفن المصري فيستمع إلى أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وغيرهم، وهناك مطربون شعبيون، لا يتعدى عطاؤهم حدود الأفراح، ويكرر ما ينتجه غيره من المطربين. فالغناء منسجم مع طبيعة الحياة، فحياة البحر والمعاناة كان لها أهلها، وحينما تراجعت تلك الحياة، وجاءت حياة الدعة والترف، ظهرت حالات تنسجم مع ذلك.

ـ لكن لدي سؤال هام في هذا الشأن هو: هل كان هناك من يرفض هذا التوجه لأسباب دينية، كأن يكون الغناء حراما في الشرع الاسلامي؟

ـ سؤالك ياسعد جميل، وهام في عرض الصورة، فالناس كانوا يقبلون على الأغاني بصورة فطرية،

ولا يدركون أن هناك من يحرّمها أو يحلّلها، فمن يذهب إلى الغوص يغنّي ويرقص ويدق الطار والطبلة، ولا يعرف ان أحدا يراها حراما، وحينما يعود يستمع للأغاني بفطرته وميله الطبيعي لكلام الحب والغزل، ولا يعلم حقا أن ثمة إشكالا عليها من الناحية الشرعية، ولم يتحدث لهم رجال الدين بحرمة من هذا النوع، لأن رجال الدين في زمان ما قبل النفط، وما بعده بعقود قليلة كانوا قلة، وليسوا بذات تأثير، لكن ما ينبغي الالتفات له أن الناس كانوا يمتنعون عن الغناء خلال مناسبة محرم الحرام، ومناسبات وفيات الأئمة عليهم السلام، لا من باب الحرمة، وإنما من باب الاحترام، فالغناء دلالة فرح، ولا يلائم سلوك الفرح في مناسبة مثل مناسبة وفاة الامام الحسين (ع)، فالمجتمع ـ مع مزاولته للغناء ـ متدين وملتزم دينيا، وحينما يتوقف يكون حداء ونعي الخطباء في مجالس عاشوراء بديلا عن أغاني الفرح،

داخلي INTERNAL

فالمجتمع في الفرح يستمع للأغاني، وفي الحزن يستمع لحداء الخطباء الذين يملكون حناجر وطبقات أصوات لا تقل جمالا عما يتملكه المطربون والنهامون، إن لم تكن أجمل، وكما ان هناك مدارس في الطرب، وألوانا في الغناء، ورموزا في الفن بشتى أشكاله، ولكل منها أنصار ورواد وأتباع، كذلك فقد كانت الحداءات الدينية مدارس وأشكالا.. ففي مناسبات الفرح الدينية (مولد النبي والأئمة والإسراء والمعراج) هناك حداء من لون خاص، وفي الحزن هناك حداء آخر، فإذا حلت المناسبة الدينية الحزينة، وهي ذكريات وفيات النبي وأئمة أهل البيت فهناك من يحدو قبل صعود المنبر، وإذا ما توفي شخص فإن الفاتحة التي تنصب على روحه ثلاثة أيام يتلى القرآن خلالها، ويحدو شخص يذكر الناس بالموت والعذاب والنار والجنة، ثم يأتي الخطيب ويقرأ حديثا يتبعه حداء ونعي على الحسين (ع) .. الخلاصة ان آذان الناس معتادة على الفن،

واستماع الشعر، والإنصات بطرب، الفرق أن الغناء ينشد الحب والعاطفة والغرام، والحداء ينشد المأساة وينتقد المظلومية، وليس غريبا في مجتمعنا ان تجد خلافا في تقييم الخطباء والحدّائين، ومن ينشدون في مواكب العزاء، فتجد من يميل لذلك الخطيب، بينما آخر يرفضه ولا يصحبه، تماما كما يحدث بين هواة الطرب والاستماع للأغاني، فهناك من يفضّل محمد عبده، ومن يفضل طلال مداح، إذ نشبت بين الإثنين معركة فنية ، والحياة ـ بموجب ذلك الخلاف ـ تسير، والكل يسعى لتحقيق هدفه، عدا أن فترة معينة كان سوق الأغنية العاطفية مسيطرا على الأجواء، وفي تلك الفترة ازدهرت تجارة الكاسيت والاسطوانات وظهرت محلات تبيع ذلك، لكن هذه الظاهرة تراجعت وانحسرت بداية الثمانينات، لظهور الموجة الدينية، وظهر تيّار ديني لا يؤمن بالغناء العاطفي، ويراه حراما في الشرع المقدس،

داخلي INTERNAL

وأن من يزاوله لا يعدو أن يكون فاسقا، فأغلقت العديد من المحلات لعدم الإقبال عليها، وبدأت موجة أخرى من الغناء وهي موجة الأناشيد الدينية، وظهرت فرق تحيي الأفراح بالموشحات والزغاريد الدينية، بدون موسيقى ولا آلات طرب، فالتيار الديني كان قويا ونشأ جيل جديد تنامى بالتزامن مع وفاة عيسى الاحسائي، هذا الجيل مال صوب الاقتراب من الدين، ومن رجال الدين، وقصد العشرات من أبناء المجتمع إلى الدول ذات الإشعاع الديني الشيعي مثل إيران والعراق بغرض الدراسة الدينية، وصارت هناك ما يشبه الهجمة على الفن وأهله، وقد تراجعت موجته وخفتت بعض ألوانه.

وهنا سأل سعد :

وهل انتهت موجة الغناء.

فأجاب سعدون:

داخلي INTERNAL

ـ لا لم تنته، ولن تنتهي، ولكن صار هناك تيّار يعادي هذا النوع من الفن، وصار يقدّم بدائل، بعضها ناجح، والبعض الآخر لم يصمد، وصار من يستمع للأغاني على قناعة تامة مفصلة بأن هناك رأيا في الدين الحنيف يحرّم ذلك، لذا وجدنا شبابا نشأ إلى أن كبر وربما توفي ولم يسمع أغنية عاطفية، بل ان معرفته بعالم الفن والطرب، معدومة، بعكس الأجيال السابقة التي استمعت للأغاني بحكم الطبيعة وبحكم البيئة.

ـ وهل هي موجة أيضا؟

ـ يمكن، واستمرار الموجة يعتمد على نوعية دعمها، فكما ان موجة الفن والغناء أفرزت رموزا يدعون لها، فإن موجة التدين والتيّار الديني أفرزت رموزا تدعمها، وتدعو لها، وصار لها تيار. وما نراه الآن ان هناك نموا للتيارين، وإن كانت هناك غلبة للتيار الديني، لأن الناس من

الأصل متدينون، وحينما نتقل لهم فكرة أن هذا التصرف محرّم في الشرع فإنه وبدافع ديني سوف يلتزم، وهذا ما أدّى إلى انحسار الفرق الشعبية التي تغنّي في الأفراح، إذ لا أحد يطلبها في الوقت الحاضر.

ـ سؤال أخير.

ـ تفضل

ـ هل كل هذه المصائب مكتوبة في أوراقك؟

ـ كلها مكتوبة وبالتفصيل

ـ الله يعينك على نفسك.

ـ شكرا

وافترق الصديقان، وتوقف سعدون عن القراءة وجاءته حالة الاكتئاب مرة أخرى، فهو يريد ان يستمع لبعض الأغاني التي تميل نفسه إليها، لكن هناك من يردعه، ويقول له :"أنت تفعل شيئا محرما، سوف يدخلك النار". فالأغاني محرّمة،

لأنها تحكي قصصا غرامية، وتدعو للعلاقات المحرّمة فينتهي، وتعود حالة الاكتئاب ليذهب إلى الوصفة الدينية، فيقرأ بعضا من آيات القرآن الكريم، ومقاطع من أدعية الصحيفة السجادية، فتهدأ نفسه، وتستقر حالته.. وهكذا كلما جاءته حالة الاكتئاب، يحتار بين الوصفتين، هناك الوصفة الدينية (القرآن والدعاء)، والوصفة الدنيوية وهي الاستماع للغناء والموسيقى، أو البحث عن وسيلة أنس أخرى، وليس امامه إلا التلفاز ومشاهدة ما يعرضه من مسلسلات وأفلام. لكن الحيرة تتوقف بعض الشيء، ثم ما تلبث أن تعود، تلك هي حياة الحائر، مابين حيرة وحيرة هناك حيرة.

— 15 —

لم تخل أوراق الحائر من سرد قصص من تجور عليهم الحياة، ومن تأخذ منهم أجمل ما لديهم، وتولدت لديهم حالة من التقمص، أي أنه يسعى لأن يتحدث ويكتب بضمير المتكلم ولكن عن قصة شخص آخر، كما أورد قصة حمودي وقف عند قصة سلمان الدبس الذي أحار عقل الحائر فكتب قصته بصورة لا تخلو من مأساة .. تقول أوراق الحائر:

هل هو القدر وانتقامه وسخطه؟

أم هو الإهمال وتداعياته، وآثاره التي تكاد لا تنتهي؟

أم هذا هو حال الفقراء المفلسين، لا حال لهم، ولا شأن لهم، سوى أن يكونوا أسارى الجهل والمرض والتخلف، فالفقير شقي والشقي شقي في بطن أمه، كما أن السعيد سعيد في بطن امه.

ثم أنا ماذا فعلت حتى يكون الانتقام شديدا وحادا بهذه الصورة؟

وما الذنب الذي ارتكبته حتى تكون النهاية قاسية بهذا الشكل؟

هكذا جرت الاسئلة على صورة خلجات ذاتية عميقة لدى " سلمان الدبس"، وتحركت ضمن أعماق ذاته وهو يخاطب نفسه بلغة الندم والأسى والأسف على ما قد فات، فالزمن جرى وركض ولن يعود، والصحة تراجعت وانحدرت إلى أرذل المستوى، ما بقى إلا العقل فما زال ـ ولله دره ــ يعمل في ظل تراجع صحة الجسم، ألم يقولوا منذ القدم أن "العقل السليم في الجسم السليم"، فأنا الآن بلا صحة ولا جسم، أسير وأمضي باتجاه العجز، والحياة لا تقبل العاجزين، ولا أدري كيف يعمل عقلي في ظل هذا الوضع؟ ولا أعلم حقا كيف ستتحمل نفسي المرهقة هذا العذاب الذي أعيشه كل لحظة من لحظات عمري.

هكذا، سيطرت الهموم على الدبس، وتمكنت وتغلغلت في أعمق اعماق كيانه، واحتلت مواقع مركزية من ذاته، فهو اشبه بــ "عزيز قوم ذل"، فكان كمثل جبل هزّته الرياح، وارتخي وتنازل وسقط، فلم يعد قادرا

على تحمل المشاق، ولا مواجهة الصعاب، فهو الآن في الضعف ينتظر اللطف و"لكل ضعف لطف" كما قالوا.

دارت الاسئلة في خاطره، وتراكمت وأوجدت حيرة لا يجد لها مخرجا ولا سبيلا، فلا يعرف "لماذا كل هذا؟" ولا يمكن أن يجيب على سؤال لا يملك صلاحية الاجابة عليه، أو لا يملك القدرة والإرادة على ذلك. وهو: لماذا فلان غني، وأنا فقير؟ ولماذا ذاك سليم معافى، وأنا عليل مريض؟ ولماذا.. ولماذا؟ اسئلة تفتح باب الشيطان، وتغلق ابواب الرحمن، لأن العزيز القدير هو المتكفل بالإجابة عليها.

هنا تذكر تلك الأيام الخوالي، التي انقضت ولن تعود، فما كل شارد بمردود، وما كل غائب يعود، خصوصا في رحاب الزمن الجاري علينا مجرى السنن، لقد كان (وما أسوأ فعل كان، هذا الفعل الناقص غير التام) سبعا ضاريا، فاتكا، إذا جلس عمل الجميع حسابا له، وإذا اجتمع مع آخرين على مائدة فهو أسدها، يأكل ما يأكله خمسة أو ستة، يأكل الطير الصغير دون أن يطبخه، يشرب البيض دون قلي أو سلق، يفاخر

نظراءه في كرع المشروبات الغازية، فإن الواحد منهم بالكاد يشرب قارورة واحدة في اليوم، أو في الاسبوع فإن هذا الدبس يشرب عشر قارورات في وقت واحد، وفي مكان واحد، ويدخل في تحديات من هذا القبيل.

وإذا ما حضر الى القصاب فإنه يأخذ قطعة من الشحم، أو الكبدة يأكلها دون طبخ أو شواء، وفي التدخين لا أحد ينافسه أو يجاريه، أو يصل إلى ماوصل إليه، فهو يكرع كل أنواع التبغ من السجاير إلى النارجيلة والشيشة بالجراك أوالمعسل، والقدو، وبمختلف الطرق في كل وقت، بل يتفاخر أن باستطاعته إخراج الدخان من فمه وأنفه وأذنيه في عملية لا يتقنها سوى خبراء التدخين، ولا يوجد إسم من اسماء السجاير لم يكن رفيقا له في يوم ما، فكافة الماركات العالمية تعرفه مثل (مارلبورو، وكنت وسالم، وابوجمل، وابوقطو، وروثمان، وفايسرو، ودانهيل)، وحتى التبغ الذي يتم كرعه بدون فلاتر، وكذلك الـ "كابتن بلاك"، والسجائر الكوبية الفاخرة، كل ذلك يتم وفق الظروف والمتطلبات والأجواء

وكيفية الحصول على تلك الأسماء والأنواع والماركات.

لقد وصلت قمة مفاخراته وتحدياته ان باستطاعته أن ينام في المقبرة ليلة كاملة مع الأموات، بل وقرب قبر معين، ويضع علامة تدل على ذلك، ويحصل مقابل هذا التحدي على مبلغ مالي يتفق عليه، على أن يعطى علبة كاملة (كرز) من الدخان من طراز مارلبورو الأحمر او الأبيض يقوم بحرقها في أحشائه طوال الليل وينفث بعضها في الهواء، ولربما ازعج بعض الأموات من رائحة دخانه، وينفذ تلك العملية، ويجلس في المقبرة الموحشة، يوم كانت حالكة الظلام، لا يدخلها الا ميت، أو راغب في الموت، مع ذلك ينام الدبس عند أحد القبور دون خوف أو وجل، ويضع علامة تدل على أنه بقى طوال الليل قرب القبر المعين.

إنها حياة لا أبالية، يغطيها جموح وعنفوان الشباب، الذي يتكفل بقهر كل شيء، وتجاوز كل معضلة، ولكن القدرة على التحمل تبقى محدودة، وجسم الإنسان ـ مهما عظم ـ محدود الإمكانية، يصل إلى

وقت يتوقف عن المقاومة والتحمل، ليبدأ العد العكسي، ويحدث التراجع في الصحة العامة.. وهذا ما حصل لهذا "الدبس" الذي فتكت به الأمراض ومضت بجحافلها تعبث بذلك الجسد، الذي لم تجد دفاعاته ومضاداته بل وكل جنوده، فالكثرة غلبت الشجاع، وأعانه على ذلك قلة الوعي الصحي والاستهتار واللامبالاة، فكانت قرحة المعدة وتشنجات القولون، مما يعني المنع من مجموعة من ملذات الحياة، فلا بهارات ولا لحوم دسمة، ولا مقليات، ولا حلويات، ولا مشروبات غازية ولا تدخين، ما يعني أن عليه أن يعيش على الأكل المسلوق. ثم جاء الداء السكري الذي يعده الأطباء بأنه المرض الصديق الذي لا يمازح، فإذا لم يتعامل المريض معه بهدوء ودلال فإن فتكه شديد، ولا يمكن تصوره، فالعمى وبتر الاطراف أو العجز الجنسي، وحالات الإغماء وما إلى ذلك هي احد نتاجات هذا الداء العضال، الذي لا علاج له سوى الاحتماء بقانون صحي صارم، والتعايش معه كضيف ثقيل.

الطبيب المعالج لـ "الدبس" تابعه منذ اليوم الأول لبروز الداء السكري، ووضع له برنامجا صحيا دقيقا، وقال له :

ـ يا أخي الوضع الحالي لصحتك هو بيدك وتحت تصرفك، فأنت الذي يحدد ذلك.

ـ كيف يادكتور؟

ـ أولا:لا بد من الامتناع من مجموعة عادات وسلوكيات يومية، حتى لا تحدث مضاعفات، فصحتك ليست كما كانت في السابق، والعمر اليوم يختلف عنه قبل عشر سنوات.. وثانيا: عليك بمجموعة تعليمات اذا التزمت بها ستكون بمأمن من تأثيرات الداء، الذي هو صديق من صادقه، وعدو من خالفه، ولا تنس إنك مصاب بالداء السكري، وقرحة المعدة، واضطرابات القولون، وارتفاع ضغط الدم، وكلها أمراض لا ترحم، ولا حل لها إلا بالحمية والنظام الغذائي فارحم نفسك واتق الله في بدنك!

ـ ولكن يا دكتور كيف أقدر على ذلك؟

ـ يتم ذلك بالامتناع عن كل الأطعمة الحارة، وذات النسبة العالية من السكر، وكذلك الدخان، مقابل ذلك المواظبة على اخذ الدواء بانتظام، والاعتناء بنظافة الجسم، وممارسة الرياضة، حتى لا تتعرض إلى ما لا يحمد عقباه، فنحن لا نطيل العمر، ولا ننقصه، فهو بعلم الله، ولكننا نستطيع ـ بفضل الله ـ أن نوفر لأنفسنا ولمرضانا العيش ما كتبه الله لنا من العمر في صحة وعافية، فأجسادنا مسؤولية، سوف يحاسبنا الله عليها.

ـ الله كريم يادكتور

ـ على بركة الله

هنا الدكتور قدم له الدواء اللازم، وقائمة بالأطعمة الممنوعة، ونسبا من الاطعمة المسموح تناولها، أخذها "الدبس" وخرج على أمل أن يلتزم بالتعليمات، حتى لا تحدث المضاعفات، فالجسم لم يعد ـ كما كان سابقا ـ قوة قاهرة تتحدى الصعاب وتقاوم الأمراض، فقد بدا الإعياء عليه، ومعالم النحافة بدأت تظهر، وعدة كليوغرامات من اللحم والشحم تناقصت وذابت بفعل

الأمراض المستجدة، التي تضرب الجسد القوي فضلا عن الضعيف.. إلا ان الدبس لم يشأ ان يتخلى عن عاداته القديمة، وعلى باب المستشفى أشعل سيجارة امتص دخانها السام، بكل متعة وعنفوان، وفي الطريق توقف عند بقالة طلب مشروب الكولا ذا النسبة العالية من السكر، بعدها بلحظات شعر بحرارة تسري في كافة أوصال جسده ومضى يترنح وكأنه قد تناول المسكر، حتى وصل المنزل في حالة إعياء تام، وإرهاق شديد لم يعهده في الأيام الخوالي، يوم كانت علبة الكولا مثل كاس الماء لديه، ومع ذلك لم يول تعليمات الطبيب وإرشاداته أي اهتمام، وإذا ما نصحه احدهم قال :"لا أحد يموت ناقص يوم" لذلك أخذت الأعراض تأخذ وضعها في جسده الضعيف، فقد ضعف بصره، وتراجعت قدرته على المشي، وتمكن العجز الجنسي منه، وسيطر الضعف العام عليه، هذا غير الإحباط التام والشعور بدنو الأجل المحتوم، فقوي الباس بات ضعيفا امام الناس، الكل ينظر إليه نظر الشفقة والعطف، وهم الذين كانوا يرونه صخرة لا تتكسر، وجبلا لا يطال.

وذات يوم وفي حالة من حالات التدهور في الصحة العامة شعر بعدم القدرة على المشي، وشعر بتنمل في رجله اليمنى وكأنها نائمة، حمل في سيارة الإسعاف وهو في حالة يرثى لها، ما أن وصل إلى المستشفى لاحظه الأطباء ونظروا إليه نظرة شفقة وحزن وقرروا بتر الرجل الذي اصيبت بـ "الغرغرينا"، والناجم عن عدم وصول الأكسجين الى الرجل، لكون المريض تناول جرعات غير قليلة من التبغ، وبترت الرجل اليمنى ليزداد احباطا ويأسا، فذلك داء آخر تمكن من أحاسيسه ليضاف الى مجموعة الأمراض التي حلت بجسده، ليصبح كتلة هامدة تنتظر المصير، وتتطلع لصاحب الأمانة ان يأخذ أمانته.. فما هي الا اشهرا قليلة حتى فارقت روحه جسده، ..فهل الزمان جائر وظالم أم هو الذي ظلم نفسه؟

انهى الحائر قراءة قصة الدبس، قائلا:"رحمك الله لقد كنت جبلا، لكن هذا الجبل هدّته الرياح، لله ما اضعفك يا ابن آدم".

-16 -

لم تخل قصص الراكضين وراء المال والثراء الزائف من مواقف مع الحائر، وكل مواقفه ورقية، فهو رجل لا يعرف سوى التعامل مع الورق والأقلام الرخيصة، فلم تتح له الحياة فرصة امتلاك قلم من الأقلام الفخمة المخصصة للتوقيع على الشيكات وصرف الملايين..

ولأن القصة تجرّ أخرى، وقف الحائر محتارا كعادته امام حكاية صالح الساهي، ذلك الذي حرّر الحائر قصته في أوراقه الكثيرة، قائلا :"إن الدبس مثل الساهي"، كلاهما مرّ بظروف خاصة، مع فارق وحيد، ان الدبس ظلم نفسه، والساهي ظلم نفسه وغيره.. هنا بدأ الحائر يبحث عن ورقة الساهي فحصل عليها، وقد كتبت هذه المرة على ورقة أبيض جميل، وبقلم حبر سائل ازرق الله، وحملت عنوان (**يقظة صالح الساهي)، يقول الورقة:**

تلك هي النهاية، نهاية كل عمل لا يرضي الله، لن تكون محمودة، ولا عواقبها حسنة. فالنتيجة لا تتبع إلا مقدماتها، إن كانت حسنة فحسنة، وإن كانت سيئة فسيئة، وقديما قالوا "من عاش بالحيلة مات بالفقر"، وأن "القناعة كنز لا يفنى".

تلك الأمثلة التي طالما سمعها صالح الساهي ممن هم أكبر منه سنا، وأغنى تجربة، لكن مقولاتهم لم تكن تتعدى أذنيه، ولم تشأ أن تدخل في أعماقه، فضلا عن أن تكون جزءا من سلوكياته اليومية.

صالح الساهي دخل مغامرة استمرت طويلا، ابتدأت حينما قرر أن يسير وفق مبدأ مد اليد بالسؤال، والاقتراض، فمن هذا ريال، ومن ذاك خمسة، ومن ثالث مائة، ففي كل مرّة يقترض مبلغا ويحدد نهاية الشهر، فيأتي الشهر والسنة ولا من سداد، وبمرور الزمن تراكمت الديون، وكثر المطالبون، فالبعض اعتبر ما قدّمه صدقة لوجه الله وسكت ونسي، والبعض الآخر اعتبره دينا مؤجلا سوف يتم تحصيله في وقت ما، في الدنيا أو في الآخرة، بينما بعض ثالث طالبه، وهدده، بل وضربه وصادر ما استطاعته يداه، والساهي تعرض بفعل ذلك لعدد من المشاجرات ودخل المستشفى لأكثر من مرّة، ودخل السجن مرّات عديدة، كلها بسبب الديون والفلوس.

ولكي يتخلص من عبء الديون، ومن قلق المطالبات، اخترع لنفسه طريقة تنقذه من هذا الوضع، فقرر أن يقترض من شخص ليسدد ما عليه لشخص آخر، ويحدث ان يشتري سيارة بالأقساط او وفق نظام التأجير المنتهي بالتملك ومن

ثم بيعها بالنقد بسعر أقل من السعر الاصلي والحقيقي لها، ويقوم بسداد الديون، وتعتمد عملية السداد على حجم القضية والشخص الذي يطالب، فإذا كان شخصا عاديا يطالب بمبلغ زهيد وليس لديه وثيقة تثبت حقه، فإن الساهي يقوم بزجره، والهجوم عليه، واتهامه بالباطل، فينفي أن يكون قد تعامل معه، بل وينكر حتى معرفته، وأما إذا كانت المطالبة قويّة، وصاحب الحق ذا نفوذ، ومالكا لوثائق تثبت حقه، فإن تعامل الساهي معه يختلف، فينقلب رأسا على عقب، فيصبح ذلك النمر المفترس الى حمل وديع، يبحث معه عن الحلول السلمية، بعيدا عن الشرطة والمحكمة والسجون، فقد يتوصل الى حل مؤقت، كتأجيل الدعوة لشهر أو لشهرين، أو الحصول على نصف المبلغ، أو جزء من المبلغ، أو الاتفاق على سداد الدين على دفعات.

ولأن الساهي يملك لسانا ذربا، وأسلوبا ذكيا وخادعا، وجملا احترافية يصعب على الذين لا يعرفونه اكتشافه، فقد استطاع أن يقنع البعض بكفالته المالية، بمعنى أن يقوم الكفيل بسداد ديونه المترتبة عليه لدى البنوك، أو بعض شركات البيع بالتقسيط، فما أن يحصل على الأموال، فيسدد القسط الأول فقط، ليصبح القسط الثاني على الكفيل، الذي بات عليه أما ان يسدد الباقي، او يقبع في السجن بتهمة التهرب من سداد الديون، أو يحاول أن يأخذ شيئا من الساهي إن استطاع.

عنوانه البارز انه صاحب مكتب خدمات عامة، يقوم بمراجعة الدوائر الحكومية، لإنهاء بعض المعاملات، واستخراج بعض التراخيص، فهو يتعامل مع معظم الدوائر الحكومية، كالبلديات، والجوازات، ومكتب العمل، والشرطة والمرور، وتحت هذا المسمى يدير جملة من العمليات المالية، فذات مرة جاءته أرملة مسكينة لا تعرف القراءة والكتابة وطلبت منه تخليص صك أرضها التي ورثتها من زوجها، لتتمكن من بنائها بمساعدة اهل الخير، فطلب منها توكيلا من المحكمة، وما أن انتهى من انهاء اجراءات الصك، حتى أنه قام بتحويل تلك الأرض الى ملكيته بالبيع والشراء، فما كان من المرأة إلا ان سقطت من هول المفاجأة حينما قال لها بأن الأرض باتت في ملكيته، وما عليها إلا الاتكال على الله فليس لها أي ارض لديه.

وقد شاعت في السنوات الأخيرة ما اصطلح عليه بـ "جمعيات التوفير"، هذه الجمعيات التي هي عبارة عن التقاء مجموعة من الأشخاص ودفع مبلغ شهري يتفق عليه، ويتم تسليم المجموع لشخص من اعضاء الجمعية، وتنتهي بمرور المبلغ على الجميع.. الساهي دخل في أكثر من جمعية، يلتزم بسداد القسط الشهري الى أن يستلم الجمعية كلها، حينها ينكر اشتراكه في الجمعية، أو حتى معرفته بأعضائها.. فوق ذات قام بتنظيم جمعيات وهمية، كل شهر

يأخذ الأموال، ويترك الجميع يندبون حظهم ويبكون على أموالهم فمن علم علم، ومن لم يعلم عليه الالتزام بسداد القسط حتى يقف امام الحقيقة.

وبقدرة قادرة استطاع ان يقنع مجموعة من الناس من خارج قريته التي يعيش فيها بأنه شخص متنفذ، ولديه شبكة علاقات قوية في كافة الدوائر الحكومية ومؤسسات القطاع الخاص، وإن بإمكانه بعلاقاته الشخصية أن يوفر وظائف للعاطلين عن العمل، ويستصدر قرارا من الجهات المعنية بنقل الموظفات العاملات في الأماكن البعيدة الى مواقع قرب منازلهن، فضلا عن حل مشاكل الطلاب والطالبات في الجامعة، ولكنه من أجل وضع هذه الحلول لابد من توفير مبلغ مالي لا يزيد عن خمسة آلاف ريال لكل حالة، وذلك تلبية لمتطلبات العملية، وأكد لهم بأنه لن يضع في جيبه شيئا من ذلك، فهو في غنى عنها، ولكنه من اجل المجتمع وخدمة الناس يحاول أن يستفيد من كل علاقاته من أجل ذلك، ولا يتورع في شتم المرتشين ولعنهم والنيل من أصولهم وتربيتهم، وبموجب ذلك فمن يرغب في الوظيفة عليه أن يجلب ملفا أخضر مع صورة من البطاقة وصورة من الشهادة الدراسية، مشترطا أن يكون الملف نظيفا ومكتمل الأوراق، مصحوبا بالمبلغ المالي (نقدا)، وخلال جلسة واحدة جمع له مبلغا ماليا ضخما، وغادر المجلس ولم يره أحد بعد ذلك، وحيث انهم لم يعرفوا عنوانه، ولا رقم هاتفه،

والرقم الذي اعطاهم اياه بات صار بقدرة قادر خارج الخدمة، ولا يمكن الاتصال به حاليا، فتوصلوا إلى أن الساهي سرق أموالهم وكل ما وعدهم به لا يعدو أن يكون كذبا، واقتنعوا أنهم قد وقعوا ضحية نصاب ماهر، حبك لعبته بشكل لا يمكن تصوره.

وبهذه الوسائل، لم ينج أحد من أحابيله حتى العمالة الوافدة، فقد يستقدم عاملا على كفالته، فيجعله يعمل ويعمل ويكد، ولا يعطيه راتبه، حتى يضطر هذا العامل أما للهرب، أو العودة الى بلده، أو طلب التحويل الى كفالة شخص آخر اكثر أمانة.. وذات مرة سافر الى إحدى البلدان المصدرة للعمالة واقنع عددا من أبنائها بأنه رجل اعمال كبير ولديه مؤسسات ضخمة، وهو جاء ليختار عمالته بنفسه، فيأخذ منهم قيمة التأشيرات، ويسكن على حسابهم، ولم يفته أن يرفه نفسه في بعض مواقع الترفيه هناك، وحدد لهم موعدا للذهاب إلى السفارة لإنهاء كافة الاجراءات اللازمة، ولما جاء الموعد حضروا الى الفندق الذي كان يسكنه، ليخبرهم موظف الاستقبال أن المذكور قد غادر البلاد قبل ثلاثة أيام فعرفوا انهم قد أخذوا "مقلبا".كبيرا من الساهي، الذي بات لديهم "نصابا" محترف النصب، وأن أموالهم قد سرقت، وما عليهم إلا الشكوى لدى السفارة، التي بدورها اخبرتهم أن شخصا بهذا الاسم لم يردها، حتى لتسجيل جواز سفره،

فضلا عن اجراء عملية استقدام، فكانت جريمة مكتملة وسجلت ضد مجهول.

اذا جاء أي مكان، وأراد أن يفطر او يتغذى في مطعم ما، أو يحصل على بضاعة من بقالة، أو خدمة من محل، يقوم بعملية احترافية يقنع فيها صاحب المطعم بأنه شخصية كبيرة، ويمكنه أن يغلق هذا المطعم، وقد يقدم له بطاقة عمل بإسم أحد المسؤولين، أو أحد المتنفذين فيحصل على ما يريد مجانا!!

وبعد ان تراكمت الديون، وكثر المطالبون، وصار معروفا على المستوى العام، قرر ان يوقف هذا المسلسل الذي لم يعد مجديا بالنسبة له، فقرر أن يلجأ الى طريقة أخرى، توفر له السيولة التي يريدها بشكل أكبر وأقل ضررا، من وجهة نظره، فلجأ الى ترويج المسكرات والمخدرات، فحقق في أولى عملياته عائدا ضخما، قام بتسديد بعض الديون المزعجة له، بغية اسكات أصحابها، ومن ثم الظهور امام الناس بمظهر التائب الناصح، ليخفي ما يريد ويبعد الأنظار عن توجهه الجديد، ولكنه وقع في عملية تهريب ضخمة، كانت خاضعة لرقابة دقيقة ومستمرة وطويلة من قبل من الجهات الأمنية، ومنها ومع كثرة الشكاوي عليه، أودع في السجن بتهمة ترويج الممنوعات، والغش والتدليس، والتعدي

داخلي INTERNAL

على الممتلكات العامة، والنصب والاحتيال، وبعد مداولات وعمليات تحقيق تم الحكم عليه بالسجن المؤبد.

وفي السجن التقى مع أحد الذين تضرروا من عملياته المشبوهة، وبعد عراك طويل، وأخذ وجذب انتهت المعركة بأن ضربه في منطقة خطرة في مثلث الموت أسفل صدره، لم يستطع ان يقاومها فصار ينازع الموت، وهو يقول:"هذه هي نهاية كل عمل لا يرضي الله، فما أن أراد ان يتشهد الشهادتين لم يمهله ملك الموت ففاضت روحه في السجن، فكانت نهايته.

هنا الحائر قام مكتئبا وهو يلعن الأموال، ويلعن الدنيا كلها، ويلعن الحياة وما فيها.. وفي الوقت نفسه دخل عليه صديقه سعد الذي لم يأت ويرى صديقه في حالة طبيعية، فقد أتاه وهو يلعن الدنيا كلها، فسأله:

ـ هل أحد سرقك يا ولد امك؟

رد الحائر غاضبا:

ـ أنت شخص مريض، وغير مؤدب، ولا تفهم شيئا

ـ ما تفهمني يا..... بعد قلبي

ـ تريد تشمني بعد،

ـ ماذا عندك اليوم

ـ عندي قصص المتكالبين على المال، فقد انتهت قصة الساهي وجائتني قصة ذلك الرجل الذي افاق من غيبوبة طويلة ليقول لإبنته الوحيدة :"ارجو السماح" ثم مات بعدها.

ـ يبدو إننا أمام قصة جميلة

ـ إنها قصة مأساوية، تداولها الناس، لكن لا أحد تجرأ وذكر اسم ذلك الرجل ولا صفته.

بدأ الحائر يبحث في الأوراق فحصل على مجموعة أوراق تحت عنوان (**الجلطة طالبة السماح)، راح يقرؤها على صاحبه:**

بعد بضعة أشهر من الانتظار، بأيّام معبأة بالآمال، مليئة بالمخاوف، مختلطة بالخوف والرجاء، بالألم والأمل، بالترقب والهروب من الحقيقة القاسية، تقف البنت الوحيدة امام والدها المقعد، الذي دخل في غيبوبة طويلة، الكل توقعها أن تكون النهاية، نهاية مسيرة الحياة الدنيا، وبداية لعالم آخر، إذا بها تفاجأ بأن هذا الميّت دماغيا وسريريا يفتح عينيه ويحرك شفتيه، وينبس بكلمات هامسة، أصغت لها البنت، التي تفاءلت ودفعها السرور والفضول لمعرفة ما يقول، إذا

به يكتفي بكلمة:"عزيزتي، ابنتي سامحيني... سامحيني"، مالبث بعدها لحظات حتى توقفت حركته بالكامل، ومالت رقبته، وأطبق فاه، وفاضت روحه، وهدأت نفسه، وأعلن النهاية المتوقعة بعد 60 عاما من الكدح والردح.

ابنته الوحيدة، التي تعمل طبيبة استشارية في امراض النساء، كانت آخر من يودعه، ويسمع صوته، فهي التي انتظرت بضعة اشهر قضاها في عالم الغيبوبة، تترقب أن تحدث المفاجأة، وتأتي الصحوة المرتقبة، إذ فاجأها بأن فتح عينيه، وحرّك شفتيه، فانتابها شيء من التفاؤل بالخير، وتعرضت لصدمة هدّت ثوابتها الطبية التي تستبعد في الغالب أن يفيق من يصاب بجلطة دماغية شديدة، وتعود له ذاكرته بالكامل، او حتى تعود له الحياة، ومن ثم يمارس حياته بشكل طبيعي، لكن هذه الثوابت تعرضت الى هزة اذ تحدث ذلك المصاب بجلطة دماغية، وأفاق من غيبوبته، لكن هذه الاستفاقة لم تدم طويلا، وإنما جاءت للحظات، وكأنما القدر أراد ان يصحو هذا الميت سريريا ليقول تلك

العبارة، فقد انتبه عقله وانتفضت جوارحه وصحا لسانه وراح يتكلم طالبا العفو والسماح من ابنته، الدكتورة التي ما فتأت تسهر معه الليالي تعلله وتمرضه بعد ان تدهورت صحته، وتراجعت حواسه، فلم يعد يتكلم او ينطق، لكنه فجأة تحدث وكاد ان يحدث فتحا طبيا، بأن شخصا اغمي عليه لبضعة اشهر قد افاق وعاد الى حياته الطبيعية، لكن هذا لم يحصل ولم يدم طويلا.

لقد كانت هذه البنت الدكتورة تأمل أن يطول عمر والدها، كي يراها متزوجة وقد أنجبت أولادا، يكون هو جدهم، والحنون عليهم، لكنها صدمت بمرضه، وبتعرضه لمرض خطير جدا، وإصابته بجلطة دماغية أقعدته وكان يحدوها أمل أن ينجو من آثار هذا المرض، ويعود لها، تحدثه ويحدثها، تخاطبه ويخاطبها، لكن هذا الأمل لم يتم إلا للحظات ظننت انها لحظة السرور سوف تعود، لكن هذا الأمل لم يتم ولن يتم، فالأطباء قرروا بأنه ميت سريريا، وان وفاته مسألة وقت، ان لم يتم اليوم فسوف يتم غدا، فهو مريض واقرب من غيره الى الموت، وهو الآن قد

فارق الحياة بعد ان استيقظ من النوم الطويل لم يوص بأمواله ولا ثرواته، وإنما هناك قوة عظيمة اعادت الروح إليه كي يتحدث الى ابنته ويطلب السماح منها، وهذا ما حصل.

لم تتمالك البنت نفسها، ولم تستطع ان توقف جيش مشاعرها، ولم تتمكن من سجن دموعها الغزيرة، التي فاضت بدموع الفرح، ثم صاحبتها صرخة ثكلى، بعد ان توقعت عمرا جديدا كتب لوالدها فابتهجت، لكن تلك البهجة تحوّلت الى أنة وآهة قوية تذيب الحشى، وتهز الجبال الرواسي.

إنها الوحيدة التي تمنّت حياته وطول عمره، بعكس بقية أقاربها الذين تمنّوا وفاته ربما نالهم شيء مما ترك من أموال وعقارات ومزارع، تنعش حياتهم المادية المعيشية..لذلك فما أن مات حتى ناحت وارتفع صوت نياحها، فلم يعد أحد في هذا المكان لم يسمع بالصراخ والعويل، لدرجة ان العاملين والعاملات في المستشفى هرعوا مسرعين لها، فأخذوها من الغرفة التي كان والدها راقدا من ثلاثة أشهر وعرفوا الحقيقة

المتوقعة، بأن الرجل قد قضى نحبه، وانتهت أيّامه ولم يعد هناك ثمة أمل في علاجه، فضلا عن عودته في الحياة، فلم يعد مريضا ليعالج، وإنما بات هالكا والموت قرار إلهي اذا صدر لا ينتظر أحدا، ولا تراجع فيه، والبنت في غمرة بكائها راحت تكرر:"مسامح ياوالدي، مسامح يالغالي، روح الله يسهل عليك ..." مما أثار فضول الجميع، عن سر هذه الكلمة، ولماذا تكرر هذه الثكلى كلمة السماح لوالدها، فهل الوالد ينتظر مسامحة ولده، وهل تسنى لهذا الميّت فرصة طلب السماح، ومن الأصل هل هناك مشكلة بين هذه الدكتورة وذلك المريض؟

وبعد أن هدأت الأمور، وسكنت النفوس، وعادت البنت الى طبيعتها، وعرف الجميع ما جرى، فالرجل قضى نحبه مصابا بجلطة دماغية، راحت البنت الطبيبة، تناجي نفسها، وتحدثها قائلة بأنها لا تريد الزواج، ولا تريد الأولاد، أنها تريد والدها.. وهي ليست غاضبة من والدها، ولا تحمل على هذا الوالد أي ضغينة، فهي ابنته مهما تكن أخطاؤه ومهما يصدر

منه، وهي جزء منه، ولا ينبغي لأي ولد ان يلوم والده، على اخطائه.

بعد ذلك تحول قطار المشاعر الى مسار آخر، وطريق مختلف، فالكآبة والحزن تأخذ مسالك مختلفة ومتغايرة ومتباينة، تنتقل من واد الى واد، ومن حدب الى صوب، فهي الآن حزينة تنثال المدامع من مآقيها، وتخرج الآهات متحشرجة من أعماقها، لتقول مخاطبة والدها الراحل:" ما الذي نفعتك ياوالدي الأموال، فقد ذهبت عنها، وتركتها لي، فقد آلت ملكيتها لي، وسوف يأتيني ابناء عمومتي وأبناء خالي، والأقارب والجيران، كل يريد حصته، وكل يتطلع لأن يحظى بجزء من الكعكة، لكنهم جميعا لا يستطيعون الحصول على شيء من هذه الثروة الطائلة، فالإرث للإبن المباشر، وأنا ابنته الوحيدة، فلا أحد سوف يشاركني في الإرث .. فالمال كله لي، ولكن ماذا سأفعل به، وأنا طبيبة، وليست سيدة أعمال، فلا خبرة لي بالتجارة والأموال، فضلا عن أن اوضاعي المالية على ما يرام".

فأطلقت زفرة من اعمق اعماقها قائلة :"آه ياوالدي لو خففت قليلا من اهتمامك بالمال، وأوليت الأشياء الأخرى، فالمال مقدّر لنا، والأرزاق بيد الله، والفقر لم يكن عيبا، والكثير من الناس عاشوا فقراء، وماتوا فقراء، لكنهم عاشوا سعداء.. لماذا اوقفت سفينة الحياة عند مرسى واحد وهو المال، فهل المال يا ابتي جلب لنا السعادة، فإخواني لم تسمح لهم الاقدار بأن يعيشوا وينعموا بهذا الخير، فماتوا الواحد تلو الآخر، وأمي لحقت بهم، وبقيت أنا الوحيدة، مع بضعة ملايين من الريالات لا ادري ما أفعل بها ".

بعد ذلك توقفت الكلمات في جنجرتها، والآهات في صدرها، وراحت تأخذ نفسها عميقا، ولكن الدموع لم تتوقف، والحزن قد رسم رسمته على وجهها الجميل الناعم، وراحت تخاطب نفسها :"انا.... من أنا؟ انا الدكتورة الاستشارية بنت الملياردير، لقد بت فاحشة الغنى، يحق لي ان اصبح سيدة أعمال وابني بدل المستشفى خمسة مستشفيات، وبدل العمارة عمارات، ومع المزرعة مزارع... ولكن.."

ثم اطلقت ضحكة صفراء ساخرة، اعقبتها أنة وزفرة تبكي كل من يسمعها، لتعود الى مسلسل الذكريات، وتنتخي صوب والدها المرحوم، لتقول :

أنا التي وقف ابي ـ سامحه الله ـ امام كل ما احتاجه كإمرأة وكأنثى، فالمال وفير، والمنزل لا يضاهى، وبدل السيارة ثلاث سيارات مع كل سيارة سائق متخصص، والبيت زاخر بالتحف والأثاث الفاخر والخدم والحشم، لكني انا التعيسة بينهم، فقد حرمت من اهم لذات الدنيا وهي ان اكون زوجة وأما، والسبب "الفلوس" .. فكان والدي يرفض كل من يطلبني لبيت الزوجية، اعتقادا منه ان هذا الشخص طامع في ثروته، ويريد أن ينعم بهذا الخير الوفير، وهذه النعمة الزاخرة.. فقد رفض حتى ابن أخيه الذي احبّني وأحببته، وكم تمنيت أن أكون بين يديه، وبين أحضانه، فهو رجل ذكي متعلم يحمل اعلى الشهادات في الطب، ولا ينقصه شيء، ورغم ذلك فقد رفضه الوالد، لخلاف مالي قديم مع اخيه (عمي)، تحملته أنا فهاهي الأموال صارت بين يدي، وأستطيع ان اتزوج

داخلي INTERNAL

من أريد ومن أحب، ويمكنني أن امنحه كل هذه الثروة.. لقد طلب مني السماح، فعلى أي شيء أسامحه، فأنا لا أملك قرارا غير المسامحة فهو أبي اراد مصلحتي فلم يدركها، وقطار العمر قد فات، ولم اعد تلك الفتاة التي يطلبها الخاطبون، ويتمنون نظرة منها، فقد بت في قائمة المتأخرات عن الزواج، والتي لا يتورع الناس عن وصفها بكلمة"عانس"، لكنهم نسوا إني طبيبة واستشارية!!!

وبينما هي في عالمها الحزين، وقطار خيالها الذي لا يتوقف، اذا بواحد طويل القامة، لا يخلو من وسامة، تبدو عليه معالم الحسن والجدية والهدوء يخاطبها بإسمها، ويكرر ذلك لأكثر من مرة لكنها لم تلتفت فعالم الهذيان قد أخذها، فقام أحدهم بتحريك شيء على المكتب فانتبهت، وأخذت تتمعن في وجه الواقف امامها، لم تستطع ان تتعرف عليه في البداية فالمفاجأة تعمي في الغالب، وتوقف سيالات الدماغ الموجهة الى الأعضاء، ومسلسل الذاكرة لم يسعفها بسرعة، لكنها أفاقت على كلمة :"عظم الله أجرك كلنا لها، هم السابقون ونحن اللاحقون"، ومن الصوت عرفت

المتحدث، واستعادت توازنها، وملف الذكريات عرّفها بالمتحدث، إنه ابن عمها الذي أحبته، ولكن والدها رفضه، وقطعت العلاقة بين الطرفين، فلم يكن منه إلا ان اخبرها بوضعه وحاله، وقال بأنه كان قد قرر السفر والهجرة الى عالم آخر، في بلاد بعيدة، لكنه سمع بوفاة عمه فجاء لتأدية الواجب، واجب التعزية، وقام بتأجيل السفر، حينها قالت له:

ـ لقد مات أبي وانتقل الى رحمة الله

ـ الموت علينا حق، فقد قضى ما عليه، ونحن في الطريق. (ابن العم يرد)

ـ اتدري آخر كلمة قالها لي؟

ـ لا

ـ سامحيني يا بنتي

ـ وهل أخطأ الوالد بحقك؟

ـ أراك وكأنك نسيت، او ربما تناسيت، فخلافه مع والدك القديم، لم ينسه فتحملنا (انت وأنا) نتيجة ذلك، فحرمنا من الزواج..

ـ الله كريم والله المسامح، ولا تجوز على الميت الا الرحمة

ـ على فكرة اين وصلت أمورك هل تزوجت؟ وما هي اخبار عمي؟

ـ عمك بخير، وكلهم ينتظرون الإذن للدخول عليك ومواساتك، وأما الزواج فلم اكن لأتزوج غيرك؟

حينها قامت واستشعرت السعادة، والتقت بعمها وقبّلت يديه، والتفت الى امرأة عمها ولثمت رأسها، وعادت مع عائلة عمها، وبعد بضع سنوات تزوجت من ابن عمها واتفقا على تأسيس مستشفى باسم والدها الراحل ومن صافي أمواله.

هنا لك ابتهل الحائر قائلا:"يا الله بحسن الخاتمة"

داخلي INTERNAL

-16-

في لحظة من لحظات التهور، والتسرع، والقراءات غير المنطقية قرّر سعدون الحائر أن يضع نهاية لكل حلقات الحيرة، ولسان حاله يقول:"إن المسلسل لابد وأن تنتهي حلقاته".

لقد قرر الحائر الهروب من ذاته، والتخلص من كل المنغصات، بل ومن كل ما يؤلمه، ويعمّق حيرته، تلك الأوراق الحائرة المتناثرة، الصفراء والحمراء والبيضاء، الزاهية والصافية، المنظمة والفوضوية، يجب أن تحال إلى التقاعد، وأن تأخذ وضعها في سلّة المهملات، فقد أتعبته، وأوقفته أمام عيوبه، أمام نقاط ضعفه، وهو يريد الهروب من كل ذلك، فنقاط الضعف تقتل صاحبها، والعقد تفتك به، والعيوب تؤرقه فهو يريد ان يكون نظيفا نقيا طاهرا صالحا أمام ذاته على الأقل وإمام المجموع أيضا لكن هذه الأوراق تضعه أمام

الحقيقة، فهي أشبه بالمرايا التي تضع من ينظر إليها أمام الحقيقة، سواء كانت قائمة بذاتها، أم مزوقة ببضع ألوان وأصباغ التجميل.

وقف الحائر وبعد تفكير عميق وساعات من القراءة قائلا :"بأن هذه الأوراق هي شخصيتي، هي تاريخي، وذكرياتي، هي أهوائي النزقة، وسلبياتي، وبالطبع لا يوجد لدي شيء من الإيجابية لأنني عنصر سوء في هذه المجتمع، تلك هذه الحقيقة التي لا يعرفها أحد سواي، ولا أحد يحكي بها غير هذه الأوراق الصامتة الجامدة، لقد كتبتني هذه الأوراق، وكتبت كل الذكريات، التي ما أن اذكرها أتألم وأتحسر، فتارة تحكي عيوبا تفشت في داخلي، أو عرضت واقعا ذهب ولن يعود، فهل موت الواقع يقتضي ان أموت أنا على حلبة هذه ألأوراق إنها أحدثت لي قلقا داخليا، وألما نفسيا، وصداعا مزمنا، فقد قرأت بعضا منها فكدت أموت، ولماذا أموت وأكون ضحية الأوراق، وشهيد الحبر، مثلما قالوا بأن أحدهم

داخلي INTERNAL

مات في غزوة بدر من أجل حمار فصار "شهيد الحمار".

وهل صار مقدرا عليّ أن أموت وأكون أنا سبب هذا الموت، فليأت الموت ولكن من صاحب قراره وهو الله جل شأنه، ولم أخلق كي أعيش مهموما، وهذه الأوراق الحمقاء هي أبزر أسباب معاناتي وحيرتي.

أنا الحائر، هذا صحيح، ورثت الاسم من والدي، لكن حيرتي ابتدأت حينما قررّت أكتب، ذهب إلى الأوراق كي أتخلص من همي إذا بي اقبع أسيرا لهم آخر، هذا الهم بات موثقا مكتوبا، كلما قرأت شيئا عنه ازداد وتجذّرا وعاد مرة أخرى ليعبث بمشاعري، لأصبح أسير الهم، ذلك الذي لم أعرف له سببا حقيقيا، غير هذه الأوراق، لذا لابد وأن تنتهي وتحترق، وآخذ رمادها وانثره في البحر، كما يفعل بعض أصحاب الديانة الهندوسية، إذ

يأخذون تمثال الآلهة ويرموه في البحر. أو كما يفعل الأطفال في بلادنا بعد نهاية الحج وعودة الحجاج، فيأخذون "الدوخلة" ويرمونها في البحر، بعد ان اعتنوا بها ووضعوا في سلالها الزرع، فما أن تنضج حتى ترمى في البحر.

وفي ساعة الغضب، والهرب، رفس سعدون ذلك الصندوق الورقي المعبأ بالأوراق، تناثرت كميات هائلة منه على الأرض، فظل ينظر لها، وظل ينظر لها وهو يقول:"لقد قال الأستاذ احمد عوّاد بأن الهمّ يكتب، والغم يرسم، والألم يخط، فأنتم معاشر الأوراق همي وغمي وألمي، انتم كل معاناتي، ومسلسل مأساتي، ولا بد من وضع حد لهذا الهراء، فليذهب أحمد عوّاد إلى الجحيم، ولتذهب دروسه ونصائحه إلى العالم الآخر، فهي غير مجدية، وغير سليمة"

رفع رجله ورفس الأوراق، ونثرها، ثم عاد وجمعها، في الصندوق المصنوع من الورق

داخلي INTERNAL

المضّلع، وأخذ علبة كبريت، مع قليل من الكاز (الكيروسين)، وانطلق مسرعا، يحرّكه الغضب، وحب الانتقام، وكأنما شيء يسوس في داخله ويشجّعه على هذه الخطوة، وقف أمام البحر، صب قليلا من الكاز على الأوراق، سال بعض الحبر، فتلفت بعض الأوراق، ضحك ضحكة عالية، ثم زاد في صب الكاز، أشعل عود ثقابه، ارتفعت نيرانه ودخانه الصغيرة، رمى بذلك العود على الأوراق، فصارت تتفاعل النار مع بعضها، وراحت تأكل الورق مع حبره، وهمومه وكلماته، هبت ريح خفيفة صادفت الأوراق المحترقة، نقلتها إلى عالم آخر، تحرّكت الأوراق التالفة، لم يعجب الحائر هذا الوضع، فقام بصب قليل من الكاز فزادت النيران، فظلت الأوراق المحترقة تطير في الهواء ليأتي دور الأوراق التي لم تطلها النار فما كان منه إلا أن رفسها برجله وبنوع من الحقد لتنتشر وتفسح الطريق أمام ألسنة النيران كي تأكل

ما تبقى من تلك الأوراق، خصوصا تلك التي لم يرد قراءتها.. هكذا ظل يراقب كيف أن النار تحرق نفسها إن لم تجد ما تأكله، لكنه لم يشأ يتركها بل كان يطعمها تلك الأوراق البريئة، فصار يتسلى باحتراقها، فصار يلقم النار ورقة ورقة، كي يتأكد أنها احترقت، وصارت رمادا، لقد تحوّل كوم الورق إلى ذرّات صغيرة، بل متناهية الصغر، لم يعد بمقدور أي أحد ان يقرأها أو يعيد صياغتها، فقد ضاعت وولّت ولم يعد لها وجود، لكنه وبحقد دفين جلب كومة من خشاش الأرض، ورماها على الأوراق، وصب شيئا إضافيا من الكيروسين وأشعل عود ثقاب آخر، ورمى به على ذلك الكوم، ولم ينس أن صندوقا ورقيا كان حاويا وحاميا لتلك الأوراق جلبه ورمى به وسط اللهب ليحترق هو الآخر.

وبعد أن أكمل عملية الحرق، قام برمي ما تبقى من الرماد إلى البحر، لكنه تفاجأ بأن شيئا صلبا لم تتمكن النار من حرقه، فقد كتب شيئا على قطعة

صغيرة من الحجر جملة تقول:"قد تتعب طوال عمرك على شيء لكنك تفقده في لحظات"، هنا ما كان منه إلا رمى بتلك الحجر إلى أعماق البحر، وقال:"البحر يحوي كل شيء ولكن لماذا هذه القطعة من الحجر بقيت دون ان تحترق؟" . أجاب على نفسه:"لأنها حجر، ولذلك فهي تستحق أن ترمى في البحر"، والبحر أمين عليها، فهو أغرق سفينة التايتانك وبمقدوره أن يغرق هذه القطعة من الحجر.

وقف أمام البحر ونظر إلى بقايا حريق الورق، وتأمل أن جبلا من الهموم بات في عالم العدم، أو عالم المجهول، فما كان منه إلا أن بكى وانتحب وتأوه، وصار يئن، ودموعه تتحادر على خديه، قائلا:"آه.. آه من هذه الحياة التي لا تعترف بغير الهم، ولا تستعذب جمالها بغير الألم، هل استطعت أن أحرق همومي وألقي بها في البحر، فهل سوف أعيش بلا هموم، هل سوف تنتهي الحيرة، وأكون

سعدون السعيد، بدلا من سعدون الحائر..لا أظن.. لا أظن.. لا أظن، فقد يموت الحائر وهو حي، وتموت همومه الورقية، لكن همومه الداخلية الذاتية، لن تتوقف إلى أن يتوقف قلبه عن النبض، كل ذلك بأمر الله"

تلك نهاية أوراق الحائر.. بعضها قرأها مرة أخرى، وبعضها رماها في أتون النار، ونثر رمادها في البحر.

رن الهاتف، رد الحائر :"من معي؟ احمد عواد؟"

رد:

ـ سعد يا سعدون

ـ انتهت الحكاية والأوراق قد احترقت.